من الدراسات البلاغية للقرآن الكريم

سـورة المؤمنون

(نموذج تطبيقى)

بحث مقدم من

د. محمود عبد الحميد السقا

أستاذ النقد والأدب الحديث. م

كلية التربية - جامعة طنطا

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبيـــاء والمرســـلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ...

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾.

فالقرآن الكريم هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، ونوره المبين.

أما بعد،،،

فهذا عرض بلاغى لإحدى سور القرآن الكريم وهى سورة "المؤمنون"، وقد رجوت الله أن يوفقنى فيما أردت .

وكان من أسباب اختيارى لهذه السورة الكريمة، أن "سورة المؤمنون" مكية، عنيت- شأن ما نزل من القرآن الكريم بمكة المكرمة - بتقويم العقيدة، وتكـــوين الضمير، وتربية الوجدان؛ فقررت وحدانية الإلـــه: وكرامـــة الإنـــسان، وعدالـــة السماء، عندما دعت إلى الإيمان بالله، وكتبه واليوم الآخر.

وكانت شرعتها أن تدعو إلى الفضيلة فى إطارها العام فى ظل من العقيـــدة الصحيحة والعبادة الخالصة .

<u>وقد اقتضت خطة البحث الالتزام بما يأتى:</u>

١- أن أقدم عرضاً ودراسة للمبادئ العامة والأفكـــار الكبـــرى التـــى عالجتهـــا السورة، رابطاً بينها وبين نظائرها من مبادئ الدين وآى القرآن الكريم.

٢- أتبعت هذا العرض بالتحليل البلاغى، مستعيناً فى ذلك بمـــا كتبـــه الـــسادة العلماء فى كتب التفاسير القديمة، والحديثة .

والله عز وجل نسأل أن ينتفع بهذه الدراسة طلبة العلم وأن يكون هذا البحث لبنة تضاف إلى الدراسات القرآنية، كما نسأله وهو خير مسئول أن يفقهنا في الدين، ويعلمنا ويرزقنا فهماً صحيحاً لكتابه الكريم. ونسأله كذلك التوفيق والقبول.

له الحمد فى الأولى والآخرة ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ آل عمران الآية ٨.

دكتـــور

محمود عبد الحميد السقا

أستاذ م. النقد والأدب الحديث

كلية التربية – جامعة طنطا

١- حـــول الســـورة

سورة المؤمنون مكية بلا خلاف، فقد اجتمعت آراء المفسرين على نزولها بمكة، قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. وآياتها: ثمانى عشرة ومائة آية، وكلماتها: أربعون ومائتان وألف كلمة، وحروفها: واحد وثمانمائة وأربعة آلاف حرف[١].

ويشير هذا الإحصاء إلى شغف الدارسين بالقرآن الكريم، وإقبالهم الكبير عليه وعنايتهم به .

وقد استشكل الحكم على ما جاء فيها عن الزكاة: لأن الزكاة فرضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة، وأجيب بأن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[٢].

ثم فرضت بالمدينة وبينت أنصبتها ...

وقد روى عمر بن الخطاب ﷺ أنه عندما نزلت سورة المؤمنون، قام الرسول ﷺ واستقبل القبلة فرفع يديه فقال: "اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وارضنا، ثم قال: لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﷺ "قد أفلح المؤمنون" حتى ختم العشر"[٣].

المبادئ العامة لسورة المؤمنون

تعرض السورة بعض الأسس الهامة، والقضايا الكبرى التى تقوم عليها الشرائع جميعاً، واشتدت عناية الإسلام بها فى الفترة المكية: فترة وضع الأسس، وإرساء القواعد؛ ليعتمد البناء على ركائز راسخة، تأذن لصرحه أن يعلو ويعلو، ويكون كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

(١)

من هذه الأسس "وحدة الإله" فالله واحد لا شريك له، له الخلق والأمر، القادر، المنعم المتفضل .

وذلك ما تقرره سورة "المؤمنون" وتؤكده فى حوار هادىء، يفضى إلى إقرار فطرى من أعماق الكافرين بأن الله مالك الأرض، ومالك السماء ومالك ما فيهما، بيده ملكوت كل شىء، لا عاصم منه إلا إليه، يجير ولا يجار عليه. فقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ...﴾[٤].

وهذه القضية الأولى للقرآن المكى، وظل رسول الله ﷺ يرسى قواعد التوحيد فى مكة ثلاث عشرة سنة .

كما أنها القضية الأولى لأول سورة فى القرآن الكريم وهى سورة الفاتحة والتى تبدأ بقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين).

وذلك نداء الله إلى الناس جميعاً... بلغه الرسول ﷺ لأمته .

وهذه القضية ذكرت فى مواضع عدة فى القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ....﴾[٥].

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[٦].

وقد أمر الله (تبارك وتعالى) نبيه محمد ﷺ أن يعلن ذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٧].

والإنسان يقر ذلك بفطرته، ويعتقده بطبيعته، فلو ترك وشأنه، ما عبد غير الله.

وفى القرآن الكريم دلائل على فطرة الإنسان النقية،، ذكرها رب العزة تبارك وتعالى فى آيات عديدة من خلال مجموعة من الأسئلة، طلبت من النبى ﷺ أن يسألها لأهل مكة .

فقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٨).

وكذلك فى سورة العنكبوت الآية ٦٣، لقمان ٢٥، الزخرف ٩: ١١ والزخرف ٨٧ .

(٢)

وأيضاً من الأسس العامة التى عرضتها سورة "المؤمنون" "وحدة الإنسان" فالناس جميعاً سواسية فى انتمائهم لأبيهم آدم، وآدم من تراب، ومن هذا التراب سل الله آدم فكان بشراً سوياً، فأكرمه الله إذ كرمه بهذه الخلقة، وارتفع به عن الطين، وأسجد له الملائكة، وكرم بنيه جميعاً .

وتناولت السورة هذه القضية فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٩).

وهى القضية الثانية التى تناولت خلق الإنسان، وتكوينه فى أكثر من موضع من القرآن الكريم، وقد عبر القرآن الكريم عن آدم بالإنسان تارة، والتعبير عنه بالبشر تارة أخرى وذلك فى سورة (ص) الآيات ٧١: ٧٣، سورة الحجر الآيات ٢٦- ٣٠، الإسراء الآية ٧٠، الكهف ٣٧، الإنفطار الآيتان ٧، ٨ غافر ٦٤ .

وهذا المبدأ السائد فى القرآن الكريم، بصفة عامة، وفى السور المكية بصفة أخص .

وهذه الوحدة التى أرادها الله للإنسان فى هذه الصور والمراحل المختلفة لا ينقضها اختلاف الإنسان إلى معترف بالله مؤمن برسوله، وبين منكر لوحدانية الله، كافر برسوله .

(٣)

والأساس الثالث الذى تعرضت له سورة "المؤمنون" هو التأكيد على "وحدة الديانات" فالأصول واحدة، وإن اختلفت الفروع، كلها تلتقى عند "الإسلام" تدعو لمبادئه، وتمهد لرسالته العظمى رسالة محمد ﷺ، فالدين عند الله الإسلام .

وسورة المؤمنون تحتوى آيات تمثل حلقات فى هذه السلسلة التى بدأت بآدم وتنتهى إلى محمد – (عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه).

فقد تناولت الحديث عن آدم عليه السلام فى قضية الخلق، وتناولت تفصيلاً قضية الرسل مع أقوامهم وبدأت بقصة "نوح" عليه السلام ثم تناولت قصص الرسل بعد نوح (عليهم السلام).

من قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...) إلى قوله تعالى ﴿... وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾(١٠).

ثم ختمت بالأمر إلى الرسل جميعاً أن يأكلوا من الطيبات وأن يعملوا صالحاً، والتأكيد على وحدة الديانات، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وقد كانت "وحدة الدين" هى الوصية التى يتركها السالف للخالف، منذ رسالة التوحيد الأولى التى بدأت بآدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد) ﷺ، مروراً بجميع الرسل .

فقد كانت دعوة إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما الصلاة والسلام)، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(١١).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١٢).

وقد جمع القرآن "وحدة الدين" فى قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١٣).

(٤)

والأساس الرابع الذى تعرضت له سورة "المؤمنون"، والذى يتصل بالأسس العامة التى تقوم عليها الشرائع السماوية جميعاً. هو "وحدة المصير وعدالة الجزاء".

ونعنى به البعث يوم القيامة، ثم الحساب، ثم الجزاء .

فقصة الإنسان لا تنتهى بالموت، وقصة كل إنسان لا يختمها الفناء، ولو كانت كذلك لكانت لهواً ولعباً وعبثاً .

وقد عرضت سورة "المؤمنون" هذه القصة فى أول السورة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

وفى وسط السورة من خلال موقف الكافرين المكذبين من قوم هود، ذكر الله تبارك وتعالى قولهم:

﴿مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ{٣٣} وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ{٣٤} أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ{٣٥} هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ{٣٦} إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(١٤).

وتعرضت السورة لإنكارهم، حيث تشابه مع موقف مشركى مكة من الرسول محمد ﷺ، فقال الله تعالى مشيداً بدعوة محمد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١٥).

وقال عن المعاندين: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(١٦).

ثم تعرض السورة مشاهد من يوم القيامة للتأكيد على الحساب والجزاء فأشارت إلى موقف المشركين وصعوبته حيث قالوا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾(١٧).

وكانت الإجابة من الله: (اخسئوا فيها ولا تكلمون).

وقوله: (فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون).

وأما الموقف الآخر، وهو موقف المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه فكان بإثبات الفلاح حيث كان مطلع السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١٨).

وانتهت بنفى الفلاح عن الكافرين (إنه لا يفلح الكافرون).

وتختم بنصيحة للرسول محمد ﷺ أن يدعو بهذه الدعوة، وعلينا أن نردد معه ﷺ "رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين"(١٩).

هذه هى أهم الأسس التى تناولتها سورة "المؤمنون" .

أما عن ارتباطها بما قبلها فتعود إلى مخاطبة رب العزة تبارك وتعالى المؤمنين بقوله فى آخر سورة الحج وهى السورة التى سبقت سورة المؤمنين قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢٠).

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٢١). فناسب ذلك أن يتلوه ما يحقق فلاحهم وفوزهم فقال سبحانه وتعالى (قد أفلح المؤمنون).

١- ورثة الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ{٢} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{٣} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{٤} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{٥} إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{٦} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{٧} وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{٨} وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{٩} أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ{١٠} الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{١١}﴾(٢٢).

في ظلال الآيات :

بشر الله المؤمنين بالفلاح، فعبر عن ذلك بصيغة الماضى "أفلح" وأكده "بقد" وهو فلاح عام فى الدنيا والآخرة وذكر سبحانه وتعالى عدة صفات لهؤلاء المؤمنين .

١- أول صفة لهم هى الخشوع فى الصلاة، وهى أن تختفى من أذهانهم جميع شواغل الدنيا، لحظة وقوفهم للصلاة، فلا يشغلهم سوى الوقوف أمام الله (تبارك وتعالى) والانشغال بذكره فتؤدى الصلاة وظيفتها، وهى الصلة بين العبد وربه عز وجل .

٢- وثانى الصفات البعد عن لغو الأفعال والأقوال والوجدان؛ فلهم من عقيدتهم، ومن اهتمامهم بتهذيب نفوسهم وإصلاح مجتمعهم، ما يشغلهم عن اللغو، وقد جمع لهم بين خير عمل: الخشوع لله وخير ترك: الإعراض عما سواه فهم خالصون لما يرضى الله عز وجل.

٣- والصفة الثالثة: هى تطهير القلب من الشح، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر، وثقة بما عند الله من حسن الجزاء، وهى طهارة للمال، تجعله طيباً مباركاً فيه، وهى وقاية من العجز الاجتماعى، وحماية للجماعة من الانحلال والتفكك.

٤- والصفة الرابعة: وقاية الفروج من دنس المباشرة المحرمة، بحفظ النفس من التطلع إلى ما محرم الله، وبحفظ الأسرة من الشك والاضطراب، فلا يخجل الإنسان من الطريقة التى جاء بها إلى هذا العالم، ولا يكون كالحيوان الهابط من أنثى تعرضت لذكر بدافع اللقاح، ولا يتسرب الشك إلى الأسرة وهى الخلية الأولى فى بناء المجتمع، ويعيش الأبوان كل منهما مطمئن للآخر وهم يرعيان أولاداً جاءوا بطريق طاهر حلال.

ويحدد القرآن الموضع المشروع لوضع بذور الحياة الإنسانية ويدعو إليه الأزواج من المؤمنين والمؤمنات على حد سواء .

وأيضاً فلا لوم على الأزواج الذكور إذا استمتعوا بمن يملكون من الإماء، وقد جعل الإسلام للأمة التى ولدت لسيدها ثم مات عنها أن تكون حرة، وفتح باب الحرية للعبيد – حيث كان الرق نظاماً دولياً- بأن جعل العتق لمجموعة كبيرة من الكفارات كما جعل العتق أيضاً تطوعاً إلى الله، أو بمكاتبة على مبلغ من المال، وغير ذلك كثير فالفضل للإسلام فى تحرير الإنسان .

ومن الطبيعى ألا ترتفع الأسيرات إلى مستوى الزوجات بالنكاح، فأباح الإسلام الاستمتاع بهن لمن يملكهن فقط، ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية عند هؤلاء الأسيرات لكيلا يشبعنها عن طريق الفوضى فى المخالطة الجنسية .

وبذلك يحفظ الإسلام لهن عفافهن، ويحفظ للمجتمع الإسلامى الطهر والنقاء.

والمباح كما ذكرت الآيات: الزوجات، وملك اليمين بالطريقة المشروعة ولذا أكملت بقوله تعالى: (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فمن أراد ما عدا ذلك وقع فى المحرمات التى لم تحل له بنكاح أو جهاد، فتفسد النفوس بالوقوع فى المحرمات، وتفسد الأسر بضياع الاطمئنان، ويفسد المجتمع بشيوع الفوضى .

٥- والصفة الخامسة: رعاية الأمانات، سواء كانت على المستوى الفردى، أو الجماعى، أو الدولى. ومن أعظم الأمانات التى يجب أن تكون لها الصدارة هى أمانة العهد مع الله فى التزام المؤمن بـ(إياك نعبد وإياك نستعين) أما

عهد المؤمن مع الله فى "لا أعبد إلا أنت ولا أستعين إلا بك"، وهو عهد الإيمان بوجود الخالق، ووحدانيته، وقدرته لأنها الأمانة الكبرى، فمن وفىّ متطلباتها فى التوجه إلى العبادة لله وحده، وطلب العون والغوث والمدد منه وحده، كان حرياً به أن يوفىّ بما دونها من الأمانات والعهود والمواثيق، وبذلك يصلح له أمور دنياه وأمور أخراه .

٦- ثم تأتى الصفة السادسة والخاتمة لصفات المؤمنين الصادقين، هى المحافظة على الصلاة فى إقامتها فى أوقاتها بكامل فرائضها وسننها وآدابها وهيئاتها، أداء يستغرق فيه القلب ويهيم الوجدان، فلا يتركونها كسلاً أو إهمالاً، لأنه من يتهاون فيها أو يتكاسل عنها، ولم يحافظ عليها لا يتوقع منه أن يحافظ على ما بينه وبين الناس من صلات .

وهذا ما يؤكد اهتمام القرآن الكريم بالصلاة، فقد حرص على كيفها بأدائها فى خشوع "الذين هم فى صلاتهم خاشعون". كما حرص على كمّها ووقتها وسننها وآدابها "والذين هم على صلواتهم يحافظون" فالمراد بـ"خاشعون" غير المراد "يحافظون" وقدمت الخشية لأنها هى المطلوب الأول: فالصلاة بلا خشوع لا ثمرة منها ولا تؤدى غرضها .

كما يشير بداية صفات المؤمنين بالصلاة، وختامها بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها فى بناء الإيمان بصفتها أقوى رباط بين العبد ومولاه عز وجل .

٧- ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

ثم تأتى المكافأة من الله (تبارك وتعالى) لمن التزم بشروط الإيمان بأن يكون من ورثة الفردوس (أعلى الجنان) وكأن الدنيا بما فيها من نعم الله الظاهرة والباطنة لا تكافئ المؤمنين الكاملين الذين أخلصوا لله إيمانهم، فاستقل الله لهم ثوابهم الدنيوى فمنحهم نعيماً يخلدون فيه بلا فناء، ويأمنون به من غير خوف، ويستقرون من غير زوال، أعطاهم فردوس الآخرة .

التحليل البلاغي :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

قد: نقيضة "لما" هى تثبت المتوقع و"لما" تنفيه، فقد: حرف يدل على ثبوت أمر متوقع تحققه .

وهى الإخبار بثبات الفلاح للمؤمنين فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه.

يذكر الزمخشرى[٢٣] فإن قلت: ما المؤمن؟ هو فى اللغة المصدق، وأما فى الشريعة فقد اختلف فيه على قولين:

أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواطناً قلبه لسانه فهو مؤمن، والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البّر التقى دون الفاسق الشقّى .

وترد "قد" فى اللغة على خمسة معان:

١- تقريب الماضى من الحال، لأن دخولها على الماضى يدل على الماضى القريب .

٢- التقليل وهو نوعان: تقليل وقوع الفعل نحو "قد ينجح الكسول" وتقليل متعلقة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾[٢٤].

٣- التكثير: كما فى قول الهذلى :

قد أترك القرن مصغراً أناملـه كأن أثوابه مجت بفرصاد

٤- دخولها على الأمر المتوقع فتفيد ثبوته، وتحققه، كما فى الآية:

٥- التحقيق كما فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٢٥].

أما أفلح فيذكر الألوسى[٢٦] الفلاح: الفوز بالمرام، وقيل: البقاء فى الخير، والإفلاح الدخول فى ذلك. وجعله الزمخشرى هنا: الإخبار بثباته، وذلك لأن الفلاح

مستقبل أبرز فى معرض الماضى مؤكداً "بقد" دلالة على تحققه فيفيد تحقق البشارة وثباتها .

وجمال البلاغة فيه كأنه قيل: قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح فى الآخرة .

والفلح بفتح اللام والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير. وقال الأزهرى: وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد، وفلاح الدهر: بقاؤه.

والمؤمن: هو المصدق بالقلب لما أتى به النبى محمد ﷺ وهو اعتقاد بالقلب وتصديق بالجوارح مع إظهار الخضوع والقبول للشريعة، فيرى أن أداء الفرائض واجب عليه، لا يدخله فى ذلك ريب، وبذلك يجمع المؤمن بين الإيمان والإسلام لأن الإيمان معناه: التصديق، والإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى محمد ﷺ والمؤمن يجمع بين الاثنين وقد فرق القرآن الكريم بين الإيمان والإسلام فى قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(٢٧).

فالإيمان يشتمل على الإسلام وليس العكس، وفى ذلك قوله تعالى فى الإيمان: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(٢٨).

والفعل "آمن" يتعدى بالباء أو باللام أو بنفسه، فهو يتعدى بالباء إذا قصد التصديق بالله وبرسوله وبما أنزل، والتصديق الذى هو نقيض الكفر، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٢٩).

ويتعدى باللام إذا قصد السماع والتسليم بما يقال، وتصديق قائله ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾(٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾(٣١).

وقد اجتمع التعدى بالباء واللام فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٢].

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ :

وتطلق الصلاة على الركوع وعلى السجود والقيام والذكر والتسبيح والاستغفار، وكلها إطلاقات مجازية، والصلاة من الله تعالى الرحمة وحسن الثناء والتكريم والتعظيم، ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن الطير والدواب والجبال والجمادات: التسبيح وصلوات اليهود والنصارى بيعهم وكنائسهم، ويقال: صلوت الظهر بفتح الظاء: ضربت صلاه، والصلا: وسط الظهر من الإنسان فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣٣]. أى: يرحمكم، وملائكته يستغفرون لكم، فصلاة الله رحمة ورأفة، وصلاة الملائكة استغفار ودعاء.

وقد اختلف فى إطلاق الصلاة على غير النبى محمد ﷺ فقيل لا يصح لأنه خاص له، ولا يقال لغيره، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٣٤].

وقيل: إن الصلاة التى بمعنى التعظيم والتكريم لا تقال لغيره، والتى بمعنى الدعاء تقال له ولغيره ومنه قولنا فى التحيات "اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم".

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٥]. بمعنى: أدع لهم واستغفر لهم .

والجمال البلاغى فى "صلاتهم" هو إضافة الصلاة إليهم، لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له، فالمصلى هو المنتفع بها وحده وهى عدته وذخيرته فهى صلاته، وأما المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها[٣٦].

والخشوع فى الصلاة: خشية القلب وإلباد البصر أى: إلزامه موضع السجود، وروى عن النبى ﷺ "أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: لو خشع قلبه خشعت جوارحه"[٣٧].

كما روى عنه ﷺ "أنه كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده"(٣٨).

ومن الخشوع فى الصلاة أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والالتفات والتمطى والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا .

يغشى أرواحهم جلال الله فى حضرته وخشوع الصوت والجوارح سكونها منها قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْساً ﴾(٣٩) أى: سكنت .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ :

ومن الجمال البلاغى: أن يتبع الوصف بالإعراض عن اللغو بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف .

واللغو: هو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال، وعن ابن عباس تفسيره بالباطل، وشاع فى الكلام الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطير، وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً، ومنه قوله تعالى: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾(٤٠). أى لا تسمع فيها فاحشة. ويطلق اللغو على الإثم فى قوله تعالى: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ ﴾(٤١). أى بالإثم، ويطلق اللغو على ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾(٤٢). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الباطل "وهو يشتمل الشرك كما قال بعضهم والمعاصى كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال"(٤٣).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾:

الزكاة: اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية.

والجمال القرآنى فى قوله "فاعلون" ولم يقل مؤدون، فقد عبر عن معناها بالفعل، أى جعل الله المزكى فاعل التزكية أى: والذين هم من أجل الزكاة فاعلون مجدون، وفى هذا التعبير القرآنى الجميل ما يشير إلى حث المؤمن على العمل والسعى والكسب، ليس فقط لكى ينفق على نفسه وعياله، بل من أجل الزكاة، من أجل أن يصير غنياً ولديه المال الذى تجب فيه الزكاة "وقال صاحب الكشاف: الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير"(٤٤). وتطلق الزكاة فى اللغة: على الطهارة والنماء والبركة والمدح وقد استعملت فى القرآن الكريم بهذه المعانى فى قوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾(٤٥) أى: لا تمدحوا أنفسكم. وجاءت بمعنى الطهر فى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(٤٦). أى: طهر من الذنوب والتزم الإيمان .

وتطلق الزكاة أيضاً على الصلاح فى قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أى: صلاحاً.

أما فى الشرع فتطلق الزكاة: على المال المخصوص أى القدر المعين الذى حدده الشرع فيخرجه الإنسان من ماله فى زمن محدد، فهى طهارة للمال تجعله طيباً مباركاً فيه .

واستشكل الحكم على ذكر الزكاة فى السورة، وهى كونها مكية بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، وقد أجاب الألوسى بقوله "وأجيب بأنه بعد تسليم أن ما ذكر فيه يدل على فرضيتها يقال: إن الزكاة كانت واجبة بمكة، والمفروض بالمدينة ذات النصب"(٤٧).

فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة لقوله تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية ﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(٤٨).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾:

أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط .

والفرج : العورة، وهو اسم لجميع سوءات الرجال والنساء والفتيان وما حواليها، كله فرج، وكذلك من الدواب ونحوها من الخلق[٤٩].

والفرج من الرجال: الذى يبدو فرجه إذا جلس وينكشف .

والأفرج : عظيم الأليتين لا تكادان تلتقيان .

والفرج : بكسر الفاء وسكون الراء: الذى لا يكتم السر .

والفرج : بفتح الفاء والراء: انكشاف الكرب وذهاب الغم .

ويطلق الفرج بالسكون: على ما بين القوائم وما بين اليدين والرجلين.

والفرجة بالضم: انفراج الحائط وما أشبهه .

وجاء الجمال البيانى فى القرآن باستدعاء العفة للمؤمنين بعد وصفهم بالإعراض عن اللغو إلا أنه جيء به اعتناء بشأنه "ويجوز أن يقال: إن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة، وجيء بهذا لما فيه من الإيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى وإنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة، واللام للتقوية، و"على" متعلق بحافظون لتضمينه معنى ممسكون على ما اختاره أبو حيان والإمساك يتعدى بعلى"[٥٠].

و"على" هنا بمعنى "من" قال بذلك الفراء وتبعه ابن مالك أى: إلا من أزواجهم كما أن "من" ضمير حافظون أى حافظون لفروجهم فى جميع الأحوال ولا حال كونهم وائين وقوامين على أزواجهم. من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ولذا سميت المرأة فراشاً أو متعلقة بمحذوف يدل على "غير ملومين".

وذكر الزمخشرى: أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسربهم"[٥١].

"على أزواجهم" فى موضع الحال، كأ،ه قيل: يلامون على كل مباشر إلا ما أطلق لهم (الزوج والتسرى) فإنهم غير ملومين. ،الزوج يطلق على الذكر والأنثى.

فزوج المرأة بعلها. وزوج الرجل امرأته، ولم ترد فى القرآن الكريم إلا بالتذكير.. ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(٥٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾(٥٣).

والآية خاصة بالرجال فإن التسرى للنساء لا يجوز بالإجماع "وقد أخرج عبد الرازق عن قتادة قال: تسرت امرأة غلاماً فذكرت لعمر (رضى الله تعالى عنه) فسألها ما حملك على هذا؟ فقالت: كنت أرى أنه يحل لى ما يحل للرجال من ملك اليمين، فاستشار عمر فيها أصحاب النبى ﷺ فقالوا: تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله، فقال عمر (رضى الله تعالى عنه) لا جرم لا أحلك لحر بعده أبداً كأنه عاقبها"(٥٤).

ويقول ابن سيده: الزوج: الفرد الذى له قرين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾(٥٥).

أما ملك اليمين: وهن اللاتى طرأ عليهن الرق بالسبى فى الحرب، وكان لهن أزوج فيصبحن حلالاً لمن وقعن فى سهمه بعد استبرائهن بحيضة واحدة للتأكد من خلوهن من الحمل، وذلك باتفاق وعلى رأى بعض الصحابة والفقهاء كل من انتقلت ملكيتها ببيع فبيعها طلاقها كما أثر عن النبى ﷺ.

اللوم: العذل ومثله اللوماء واللومى واللائمة، يقال يلوم لوماً وملاماً، فلام وألام. بمعنى واحد، ولوم شدد للمبالغة، وألام الرجل أتى ما يلام عليه، واستلام الرجل إلى الناس: استذم وأتى إليهم ما يلومونه عليه.

وقد ذكر القرآن الكريم مليم بضم الميم الأولى بمعنى مذنب فى قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(٥٦).

والفاء فى قوله: (فإنهم غير ملومين) للسببية، فهو تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم من المذكورات، وقيل الفاء فى جواب الشرط مقدر والمعنى: فإن بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ :

فالمباح كما ذكرت آنفاً الزوجات، وملك اليمين بالطريقة المشروعة فمن أراد ما عدا ذلك وقع فى المحرمات التى لم تحل له بنكاح أو جهاد.

"ومن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه، وهو إباحة أربع من الحرائر، ومن الإماء ما شئت (فأولئك هم) الكاملون فى العدوان المتناهون فيه"(٥٧).

ابتغى: طلب وأراد ومنه قوله تعالى ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾(٥٨) وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾(٥٩). أى ذلك ما كنا نريد .

والباغى: الذى يطلب الشىء الضال. جمعه بغاة وبغيان.. والبغية فى الولد نقيض الرشدة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾(٦٠).

ونصب "وراء" على أنه مفعول "ابتغى" والمعنى: فمن ابتغى خلاف ذلك، وقال بعض المحققين إنه ظرف لا يصلح أن يكون مفعولاً به، وإنما هو ساد مسد المفعول به .

العادون: المجاوزون ما حدا لهم وأمروا به، فالعادى: الظالم، وأصله من تجاوز الحد فى الشىء. ومنه التعدى والاعتداء والعدوان. قال تعالى ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٦١). وقال تعالى ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾ أى: لا تتجاوزوا الحد، والتعدى: مجاوزة الشىء إلى غيره .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ :

أماناتهم: سمى الشىء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(٦٢).

والأمانات كثيرة: منها ما هو على المستوى الفردى، أو الجماعى، أو الدولى، ولعل أهم الأمانات هى أمانة الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته وقدرته، فمن وفىّ بمتطلبات هذه الأمانة الكبرى كان حرياً به أن يوفىّ بما دونها من الأمانات والعهود والمواثيق. وبذلك يصلح له أمور دنياه وأمور أخراه .

وقوله عز وجل ﴿وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾(٦٣).

فالذى يؤدى: الأعيان لا المعانى، والذى يخان، المؤتمن عليه لاالأمانة نفسها ..

ومن الجمال البلاغى، الإشارة إلى تعدد الأمانات فلذا جاءت بالجمع فى أكثر من موضع للقرآن الكريم كما فى سورة النساء فى الآية ٥٨ والتى ذكرت آنفاً. فالأمانات: جمع أمانة .

فهذا التعدد فى "الأمانات" لأنها متنوعة، تقع على الطاعة والعبادة، والوديعة، والثقة، والأمان، والتكاليف والأعضاء، وكل ما ائتمنت عليه من قبل الله تعالى، أو من قبل العباد .

والعهد: مصدر أريد به ما عوهد عليه من جهة الله، ومن جهة الناس ويراد بالعهد من جهة الله: كل ما عاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

والرعى: أصل الرعى حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه، ثم استعمل فى الحفظ مطلقاً .

والمراد برعى العهد فى قوله: "وعهدهم راعون" هو: حفظه عن الإخلال به، وذلك بفعله على أكمل وجه .

من الجمال البلاغى فى الآية الكريمة أن يأتى تعميم حفظ الأمانات بعد ذكر "حفظهم لفروجهم"، بحيث تشمل الآية الأموال ونحوها وجمعها لا فيها لمن التعدد المحسوس المشاهد .

كما ذكر العام بعد الخاص لأن حفظهم لفروجهم يدخل فى عموم الحفظ للأمانات والعهد، وكأنه ذكر حفظ الفروج مرتين مرة تنويه بالخاص، والثانية تنويه بالعام الذى يشتمل على الخاص .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

حرص القرآن الكريم فى الصلاة على كيفها بأدائها فى خشوع، كما حرص على كمها ووقتها وسننها وآدابها .

ولذا نجد أن المراد بـ"خاشعون" غير المراد بـ "حافظون".

ومن الجمال البلاغى أن تبدأ صفات المؤمنين بالصلاة، وتختم أيضاً بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها فى بناء الإيمان بصفتها أقوى رباط بين العبد ومولاه عز وجل .

وفى تقديم الخشية لأنها هى المطلوب الأول؛ فالصلاة بلا خشوع لاثمرة منها، ولا تؤدى غرضها.

ومن البلاغة القرآنية فى قوله "أولئك هم الوارثون" قصر لصفة الورث عليهم لا تتعداهم إلى غيرهم، وتنبيه إلى علو مكانتهم وسمو منزلتهم، وذلك باستخدام اسم الإشارة الموضوع للبعيد "أولئك" وقد وقع اسم الإشارة هنا موقعاً لطيفاً .

ولما كان أصحاب هذه الصفات النبيلة يستحقون الجزاء الذى يتناسب مع تقواهم وخشيتهم من الله تبارك وتعالى فذكر الجزاء بعد اسم الإشارة "أولئك" بقوله: "هم الوارثون" فجاء الجزاء من جنس العمل بإطلاق الوراثة تفخيماً لها ثم جاء التوشيح للوراثة والتأكيد لها بقوله: "والذين يرثون الفردوس" بيان لما يرثون، وبين الجملتين كمال اتصال .

وكأن الدنيا بما فيها من نعم الله الظاهرة والباطنة لا تكافئ المؤمنين الكاملين الذين أخلصوا لله إيمانهم، فاستقل الله لهم ثوابهم الدنيوى فمنحهم نعيماً

يخلدون فيه بلا فناء، ويأمنون به من غير خوف، ويستقرون من غير زوال أعطاهم فردوس الآخرة أعلى الجنات .

ومن الجمال البلاغى فى الآيات السابقة، فى تقديم وصفهم بالخشوع فى الصلاة على سائر ما يذكر من الأوصاف، ما يدل على التنويه بشأن الخشوع فقد ورد أن الخشوع أول ما يرفع من الناس ويفقدونه من دينهم.

وأيضاً من الجمال البلاغى إيثار التعبير عن هذه الأوصاف بأسماء الفاعلين: خاشعون، معرضون، فاعلون، حافظون، راعون الوارثون، مايدل على الثبات والدوام، وهذا أبلغ من التعبير بالأفعال، لأن الأفعال تدل على التجدد والحدوث .

فالتعبير بأسماء الفاعلين قد أبرز إتصافهم بتلك الأوصاف فى معرض الثبات والدوام، وهذا أقوى فى أداء المعنى وأبلغ .

وجاء التعبير بالفعل فى قوله: "على صلواتهم يحافظون" فلأن المقام قد اقتضى ذلك، لما فى الصلاة من التجدد والتكرر .

ولذا جمعت هنا (صلواتهم) وأفردت فى أول الصورة (صلاتهم).

وجاء قوله تعالى "الوارثون" على سبيل الاستعارة التصريحية تبعية حيث شبه استحقاقهم الجنة بما قدموا من صالح الأعمال "بالورث" ثم اشتق من الورث "الوارثون" بمعنى "المستحقون"، وتنبئ هذه الاستعارة بأن أولئك المؤمنين قد نالوا تلك المنزلة بما قدموا، فهم قد ورثوا ثمرة أعمالهم، وجزاء تقواهم، فاستحقوا الخلود فى الفردوس .

أما قوله "هم فيها" أى فى الفردوس، وهو على ما ذكر ابن الشحنة مما يؤنث ويذكر. ويرى الباحث أن التأنيث باعتبار أنه اسم للجنة "فقد أخرج سعيد بن منصور، وابن ماجة، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم عن أبى هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزلة فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾(٦٤).

وقيل الإرث استعارة للاستحقاق وفى ذلك من المبالغة مـــا فيـــه لأن الإرث أقوى أسباب الملك .

وقوله "خالدون" حال مقدرة من فاعل "يرثون".

أى سيكون حالهم الخلود فى الجنة لا يخرجون منها أبداً .

٢- دلائل الإيمان فى خلق الإنسان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ{١٢} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{١٣} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{١٤} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{١٥} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{١٦}﴾[١٥].

فى ظلال الآيات :

بعد أن تحدثت الآيات عن صفات المؤمنين مبتدئة بخشوعهم فى صلاتهم منتهية بما أعد لهم فى أخراهم. فقد عقبت الآيات بذكر مبدئهم ومآل أمرهم فى ضمن ما يعمهم وغيرهم .

فالآيات تتناول دلائل الإيمان فى خلق الإنسان وأمور تكوينه ونموه واكتماله، مبتدئة بالنشأة الأولى منتهية بالبعث يوم القيامة، وفى هذا التتابع على هذا النظام ما يشهد بوجود الخالق، وقدرته على هذه النشأة والقصد إليها، وأنها ليست وليدة الصدفة دون قصد أو تدبير، فعلينا أن نؤمن به وبألوهيته وبقدرته على إبداع الإنسان على هذا النحو المذكور فى الآيات.

فالطين هو المصدر الأول، والإنسان هو الطور الأخير وشتان ما بين الطين والإنسان، ما أحرانا أن نتأمل قدرة الله، إن القرآن يكرم الإنسان، ويقرر أن فى تكوينه نفخة من روح الله؛ هى التى جعلت من سلالة الطين إنساناً أرقى من الحيوان، فالإنسان فى تكوينه الأول ليس مادة خالصة ولكنه مادة بها روح، إنها روح الله – عز وجل .

ذلك أصل نشأة الجنس الإنسانى من سلالة من طين .

أما نشأة الفرد الإنسانى فلها طريق آخر، ذكره القرآن الكريم فى قوله: (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين).

فهذه النطفة طور من أطوار النشأة الإنسانية، وهى تختصر وتلخص الإنسان بكل عناصره وصفاته. وهذه النطفة توضع فى قرار مكين. عند الرجل بين فقار الظهر وأضلاع الصدر، وعند المرأة هو الرحم الغائرة بين

عظام الحوض المحمية بها من التأثر باهتزازات الجسم، ثم تتحول إلى علقة تعلق بجدار قطعة من دم غليظ مختلط (مضغة)، وتجئ مرحلة العظام أولاً حيث تتحول المضغة إلى عظام، وتأتى بعد ذلك مرحلة كسوة العظام باللحم، ثم يرفع الله خلقة الإنسان إلى منزلة عظيمة دون غيره من أنواع الحيوان، فالأطوار الأولى لتكوين الجنين متحدة بين الإنسان والحيوان، ولكن الإنسان يمتاز بهذا الخلق الآخر المتميز الذى يجعله مستعداً للارتقاء والكمال، وهذا النظام الدقيق المنظم الذى لا يتبدل ولا ينحرف ولا يتخلف يدل على عظمة الله وقدرته فى خلقه .

ثم يموت هذا الإنسان بعدما يعيش فى الحياة الدنيا ما قدر له أن يحيا بها، ثم يأتى البعث ليكون مرحلة أخرى وهى المرحلة الأخيرة للحياة الكاملة المستقرة لمن اتصف بصفات المؤمنين التى ذكرها القرآن الكريم فى مطلع هذه السورة، ولمن تأمل أطوار الخلقة الإنسانية فى الآيات التى تلتها .

أما الغافلون المنكرون فيصيرون حصب جهنم وقوداً للنار التى وقودها الناس والحجارة .

التحليل البلاغى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ :

الجمال البلاغى فى تعرض السورة لتطور الإنسان فى خلقه، وكأن هذا كان رداً على الادعاءات الشائعة لدى الماديين فى كل زمن وعهد: إنكار البعث لحياة الآخرة، وتأكيد الدنيا وحدها كحياة الإنسان، فلذا أبرزت السورة أمر الإبداع فى هذا الخلق... ومن جانب آخر: مما يجعل البعث أمراً سهلاً غير مشكل على الخالق جلت قدرته .

السلالة: الخلاصة، لأنها تسل من بين الكدر وتلك نشأة آدم عليه السلام. وهى على وزن فعالة بناء للقلة كالقلامة "وقال قتادة: استل آدم من الطين"(٦٦).

وهذا أظهر فى المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون .

وخلق: أصل الخلق، تقدير ما منه وجد الإنسان، أو إيجاده على وفق التقدير .

والخلق: يطلق على أمرين: الإنشاء والإيجاد على غير مثال سابق.

ومن صفات الله تعالى "الخالق" و"الخلاق" ولا تجوز هذه الصفة معرفة بالألف واللام لغير الله عز وجل، فهو سبحانه الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة .

والجمال البلاغى فى الآية، بأن المراد بالإنسان الجنس على اعتبار أكثر أنواعه، وبالسلالة: النطفة، وبالطين: آدم عليه السلام فيكون فى الإنسان مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأريد به الجزء الأكبر، وفى "طين" مجاز مرسل آخر علاقته اعتبار ما كان فى بدء الخلق.

وقد أفاد تكرار "من" فى الآية فالأولى من قوله "من سلالة" ابتدائية متعلقة بخلق، والثانية "من طين" بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى: سلالة كائنة من طين .

والمعنى: ولقد خلقنا الإنسان: أى آدم عليه السلام من طين باعتباره أول الأفراد وأصل النوع، فالكل مخلوق من ذلك خلقاً إجمالياً فى ضمن خلقه عليه السلام.

وهناك إشارات قرآنية كثيرة لذلك منها قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾(٦٧).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾(٦٨).

ومعناه: أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ :

والجمال البلاغى يبدأ بـ"ثم" حيث تفيد الإشارة إلى مابين الخلقين من تفاوت كبير، وكل منهما دليل على قدرة الله، وهما معاً دليل آخر على قدرته عز وجل، إنها آية من آيات القدرة والإبداع .

أما النطفة: هى طور من أطوار النشأة الإنسانية، وهى توضع فى قرار مكين عند كل من الرجل والمرأة .

عند الرجل: وهو الحبل المنوى الذى يمتد بين فقار الظهر وأضلاع الصدر وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾(٦٩).

وعند المرأة: هو الرحم الغائرة بين عظام الحوض .

وتعرب "نطفة" مفعولاً ثانياً للفعل جعل على أنه بمعنى "صير" والضمير فى "ثم جعلناه" يعود إلى الإنسان باعتبار أفراده المغايرة لآدم، والضمير عائد على غير مذكور، وذلك لوضوحه وشهرته ويقدر مضاف أى: "ثم جعلنا نسله".

وإذا أريد بالإنسان "أدم" فيكون الضمير العائد عليه: أفراد بنى آدم الذين تناسلوا منه .

ومكين: "أى متمكن مع أن التمكن وصف ذى المكان وهو النطفة هنا على سبيل المجاز"(٧٠).

وجوز أن يقال: إن الرحم نفسها متمكنة فهو مجاز عقلى علاقته إسناد المبنى للفاعل إلى مكانه .

وجمال بلاغى آخر: هى الكناية عن جعل النطفة محرزة مستقرة فى أمان .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾:

والعلقة: قطعة اللحم الجامدة لا استبانة فيها ولا تمايز بقدر ما يمضغ.

والجمال البلاغى فى إيثار التعبير بـ"ثم" دون الفاء للدلالة على أن حصوله مما قبله بعيد، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخى والبعد الحسى. لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية مما يستغرب ويستبعد .

واستخدام "ثم" الدالة على الترتيب مع التراخى فى الزمن للدلالة على وجود فاصل زمنى بين الطين والنطفة، واستخدام القرآن الكريم "ثم" فى قضية خلق الإنسان للانتقال من طور إلى طور فى الخلق، ذكر فى أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾(٧١). ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾(٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾(٧٣).

وقد جاء بعد ذلك العطف بالفاء، وهى إشارة بلاغية جميلة حيث تفيد تفاوت الاستبعادات، فالمعطوف بثم مستبعد حصوله مما قبله، أما المعطوف بالفاء فهو ليس يستبعد مما يفيد التقارب بين العلقة والمضغة .

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً﴾.

وهنا جمال بيانى وجمال بلاغى، فأما الجمال البيانى: فهو ما كشف عنه القرآن الكريم من مراحل تكوين الجنين مما لم يكتشف على وجه الدقة إلا حديثاً على أثر تقدم علم الأجنة الذى قرر أخيراً أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وأن خلايا العظام هى التى تسبق إلى التكوين، ولا تتكون خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد تكوين خلايا العظام، وبعد تمام تكوين الهيكل العظمى جميعه للجنين. فسبحان الله الخلاق العظيم .

أما الجمال البلاغى: فهو فى صيغة جمع "العظام" دون غيرها مما فى الأطوار حيث أفرد "النطفة، والعلقة، والمضغة وذلك لأن العظام متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها، فالساق لها عظام، والأصابع كذلك، وأطراف الأضلاع، والرأس، وكل مختلف الهيئة والصلابة .

"وعدة العظام مطلقاً على ما قيل مائتان وثمانية وأربعون عظماً.. هي عدة أجزاء الإنسان"[٧٤] والله تعالى أعلم .

ولفظ "كسونا" الذى يفيد الستر، أى جعلنا على العظام ما يسترها ويشدها ويقويها .

والإنسان ذو عظام كثيرة، فجاءت كسونا لتفيد أن كل عظمة من هذه العظام قد كست .

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾:

وهذه إشارة إلى أن الخلق الآخر مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعل إنساناً ناطقاً سميعاً بصيراً، وأودع كل عضو منه، وكل جزء عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغى بشرح، ومن هنا قيل:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[٧٥]

وقيل الخلق الآخر "الروح" والمراد بها النفس الناطقة .

والمعنى: أنشأنا له أو فيه خلقاً آخر، والمتبادر من إنشاء الروح خلقها، وظاهر العطف يقتضى حدوثها بعد حدوث البدن وهو قول أكثر الإسلاميين .

والجمال البلاغى "الالتفات" من التكلم فى قوله "أنشأنا" إلى الغيبة فى قوله "فتبارك الله"، وهذا الالتفات تكمن فيه معانى سامية، إذ الالتفات إلى الاسم الجليل يفيد تربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أفعال الألوهية، وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته عز وجل أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به، إجلالاً وإعظاماً لشأنه تبارك وتعالى، ولذا كان العطف بالفاء: "فتبارك الله"...

ودقة التعبير القرآنى، وجمال الوصف، جعل أكثر من صحابى – كما ورد[٧٦]– ينطق بختام الآية: "فتبارك الله أحسن الخالقين) قبل أن يسمعها من رسول الله ﷺ فيبتسم المصطفى ﷺ قائلاً لكاتب الوحى: هكذا نزلت وذلك من حسن نظم القرآن الكريم حيث تدل صدور كثير من آياته على إعجازها .

و"أحسن" هنا اسم تفضيل على غير بابه – كما يقول النحاة – فلا خالق إلا الله، له الحسن المطلق فى الخلق، ولا يقدر على الخلق سواه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٧٧].

فالله وحده القادر على هذا الخلق وفق هذا النظام الدقيق المنظم الذى لا يتبدل ولا ينجرف ولا يتخلف .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ :

ومن الجمال البلاغى فى قوله تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) هو إنزال غير المنكر منزلة المنكر تهكماً به وسخرية منه، فالموت لا ينكر بالقول، ولكنه ينكر بالفعل، فالموت حق واقع لا ينكره أحد، ولكن لما كان المخاطبون لاهين عن الموت غافلين عن الاستعداد له، أنزلهم الله تبارك وتعالى منزلة المنكرين، فأكد لهم الخبر "بأن، واللام، والجملة الإسمية".

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ :

والجمال البلاغى هنا فى إنزال المنكر منزلة غير المنكر فى الخطاب وهو عكس الآية السابقة، فالله تبارك وتعالى يشير إلى أن قضية البعث مقطوع بصدقها، وأنها مسألة بديهية لا موجب لإنكارها. وأن فيها من الدلالة الواضحة والحجج القاطعة التى يراها الإنسان المنكر كل يوم فى مخلوقات الله تبارك وتعالى، ولذا لم يؤكد البعث فى الآية الكريمة سوى

بمؤكد واحد وهو "إن" وجاء الخطاب بالجملة الفعلية "تبعثون"، ولم يأتى بالجملة الإسمية التى تفيد التوكيد .

والمشركون لا ينكرون الموت، ولكنهم ينكرون البعث، فكان من الجمال البلاغى أن يبين لهم أن الموت الذى ترونه كل يوم حقيقة مؤكدة، قد يستبعده العقل حتى يوشك أن ينكره، ولذا بولغ هنا فى توكيده، أما البعث فسياق الآيات يدل على عدم إنكاره لأن الله تبارك وتعالى الذى ذكر كيفية خلق الإنسان وانتقاله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب، ويستجمع الغرائب، وفى ذلك أدل دليل على حكمته، وعظيم قدرته عز وجل، على بعث الإنسان وإعادته. وأنه سبحانه لن يهمل أمره، ويتركه بعد موته منسياً .

ومن الجمال البلاغى أيضاً تكرار حرف العطف (ثم) الدال على التراخى، للدلالة على تباعد الأزمنة بين خلق الإنسان وموته، وبين موته وبعثه .

والمقصود الأهم هو "عدالة الجزاء" لأن فى بعثه ومحاسبته ما يدل على "عدل الله (تبارك وتعالى)".

كما أن مجئ "ثم" بين ميتون وتبعثون ما يدل على فاصل البرزخ الذى بين طور الإنسان الذى تأهل به للأعمال والتكليف، وبين بعثه للجزاء، وهو ما يشير إلى حياة القبر .

فقد ذكر الزمخشرى قوله: "جعل الإماتة التى هى إعدام الحياة، والبعث الذى هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضاً على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع، فإن قلت: فإذاً لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث، قلت ليس فى ذكر الحياتين نفى الثالثة وهى حياة القبر... وأيضاً فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء والإماتة والإعادة، والمطوى ذكرها من جنس الإعادة"[٧٨].

٣- دلائل الإيمان فى الكون

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ{١٧} وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ{١٨} فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{١٩} وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ{٢٠} وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{٢١} وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ{٢٢}﴾[٧٩].

فى ظلال الآيات :

بعد أن ذكر الله – تبارك وتعالى – دلائل الإيمان فى خلق الإنسان، ينتقل إلى دلائل الإيمان فى الكون مما يشهده الناس ويعرفونه، ولكنهم لايتدبرون .

فيتناول خلق الكون وهى إشارة على قدرة الله – تبارك وتعالى – والعلاقة بين خلق الإنسان وخلق الكون من دلائل التنسيق الدقيق بين مخلوقات الله، الذى خلق هذا الكون الفسيح من أجل الإنسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى، وهى إشارة أيضاً إلى أن خلق السموات أكبر وأعظم من خلق الإنسان .

وقد خلق الله – تبارك وتعالى – السماوات طبقات بعضها فوق بعض قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾[٨٠].

وقد خلقها الله – تبارك وتعالى – بحساب دقيق، وتدبير ينفع الإنسان ولا يضره، ومن السماء ينزل الماء إلى الأرض، ثم يسكنها لينتفع به الإنسان فى الوقت الذى يريده. وهذا الماء ينزل بقدر وحساب مثل أى شىء فى الكون يخلقه الله بقدر قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٨١].

فهذا الماء الذى ينزل من السماء، فلا هو كثير فيغرق أو يفسد، ولا هو قليل فتجذب الأرض أو تمحل، ولا هو فى صعيد قريب فيتعرض للتلف أو

التلوث أو الضياع، يحفظه الله على النحو الذى يحفظ به النطفة فى مستقر الأرحام، ومن الماء تنشأ الحياة .

وتلك نعمة يستحثنا الله على شكرها بقوله: (وإنا على ذهاب به لقادرون) ويجب المداومة على هذا الشكر حتى لا تذهب هذه النعمة، فكما أنزل الله الماء بقدرته، فهو سبحانه قادر على أن يفسدها ويجعلها فى طبقات الأرض البعيدة فالذى أنزله بقدرته قادر على تبديده وإضاعته .

وفى ذلك يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾(٨٢).

ثم تنتقل الآيات إلى عالم النبات التى هى بعض نتاج الماء المنزل من السماء فيذكر القرآن أكثر النباتات الموجودة فى مجتمع الجزيرة العربية فيشير إلى النخيل والأعناب حيث الاعتماد عليها فى طعام أهل الجزيرة، لهم فى الجنات طعام سائغ وفاكهة حلوة، وهما نموذجان من الحياة التى جعلها الله من الماء فى عالم النبات والأشجار، كما أنشأ الناس من ماء النطفة فى عالم البشر والإنسان، وعلى غرار هذين النموذجين توجد نماذج كثيرة خص الله منه نموذجاً مباركاً طيباً ذكره فى قوله – عز وجل–

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾.

وتلك هى شجرة الزيتون التى ولدت أول ما ولدت فى هذا الموطن المبارك "سيناء" الذى يضم جبل الطور الذى كان موسى (عليه السلام) بجانبه إذ ناداه ربه، بالواد المقدس، ولذلك خصها الله بالذكر، فسيناء مسقط رأس الزيتون الأول، وهى الرحم الطاهر الذى خرجت منه، وهى تنبت هناك من الماء الذى أسكنه الله الأرض وعليه تعيش، وهذه الشجرة المباركة تنبت وفى ثمارها الزيت الذى يخرج من ثمارها، ومن هذا الدهن صبغ للآكلين، فهو إدام يصبغ لقمة الطعام فتكتسب لونه، وتصير سائغة مشتهاة للآكلين .

وتنتقل الآيات القرآنية إلى الحديث عن نوع آخر من نعم الله علينا فى الكون لنتخذ منها العظة والعبرة، فينتقل القرآن إلى عالم الحيوان فيقول:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

فهذا اللبن الذى يخرج من بين الدم والفرث، ولا يأخذ من لون الدم، ولا من ريح الفرث شيئاً، ويأخذ مسلكه الدقيق بجوارهما، ثم يكون بعد ذلك – سائغاً لطيفاً، ما أحسنها من عبرة لو نظرنا إليها بقلب مفتوح وحس بصير .

ثم يذكر الله – تبارك وتعالى – فضله علينا فى تسخير هذه الأنعام- الإبل والبقر والغنم- على نحو من الإجمال أولاً، (ولكم فيها منافع كثيرة) سوى الألبان، وهى منافع الأوبار والأصواف والأشعار وإثارة الأرض وسقى الحرث وغيرها .

ثم على نحو من التفصيل ثانياً، فيخص منفعتين بالذكر يشير إليهما قوله تعالى: (وعليها وعلى الفلك تحملون).

لما لهما من صلة بإنعام الله علينا من جهة، ودعوته إيانا إلى اتخاذ العظة والعبرة والتماسهما بالبصائر والأبصار، فالإنسان يحمل على الإبل وهى سفن الصحراء، ويحمل على الفلك وهى سفن الماء .

ولولا تزويد الله كل منهما بالخصائص التى تتناسب وأداء المهمة التى خلق من أجلها بحيث قدر للسفن أن تطفو على سطح الماء، وأقدر الإبل على أن تعبر الصحراء، لولا ذلك لغرقت السفن، وهلكت الإبل. ولما كانت التجارة التى عرفتها البشرية، وعاشت عليها من قديم الزمان، وما زالت تعتمد عليها جل الاعتماد .

كل ذلك من دلائل عظمة الله فى كونه، تقودنا للإيمان به، إذا نظرنا إليها بتدبر وفهم وإدراك .

التحليل البلاغى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾:

الطرائق: السموات لأنه طروق بعضها فوق بعض، كمطارقة كل شيء فوق مثله، أو لأنها طرق الملائكة ومتلقباتهم وقيل الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها .

والواو للاستئناف والجملة بعدها بيانية لذكر ما يحتاجون إليه بعد خلقهم فى قوله: (ولقد خلقنا الإنسان ....).

والجمال البلاغى فى قوله: (وما كنا عن الخلق) فالأصل أن يقال "وما كنا عنه" ويكون الضمير مضمر يعود على الإنسان، ولكنه جاء بالمظهر "الخلق" موضع المضمر (الضمير) وذلك للاعتناء بشأن المظهر، وإبراز القدرة والمنة. وفى الخلق مجاز مرسل علاقته التعلق الاشتقاقى حيث أطلق المصدر (الخلق) وأريد اسم المفعول (المخلوقات).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾:

وأيضاً فى قوله: (وأنزلنا من السماء ماء) والأصل أن يقال "وأنزلنا منها" وذلك للاعتناء أيضاً بشأن المظهر .

فقد اعتنى بشأن المقدم (من السماء) وذلك للتشويق إلى المؤخر وهو الخاص بالمنزل (الماء)، كما أن فى لفظ (السماء) مجاز مرسل علاقته المجاورة، لأن الماء ينزل من جهتها وليس منها .

والجمال البلاغى لبيان القدرة فى قوله: (وإنا على ذهاب به لقادرون) فهو يؤذن باقتدار المذهب جل وعلا، وأنه إذا أراد لا يعجزه شيء، وهى من أجمل الآيات فى الإبعاد .

حيث شدة المبالغة، إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة .

ولذا ابتدىء بضمير العظمة مع التوكيد "إنّا".

كما جاء بالجملة المؤكدة بـ"إنّا واللام" وجاء بكلمة "ذهاب" نكرة لتدل على كثرة وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب

جل وعلا- كما استخدم الجمع فى "قادرون" والتقديم ما فيه الإيعاد. "على ذهاب" وخلو التعبير من التعقيب بما هو مطمع، والكلام جار على الإخبار، حيث يخبر جل وعلا عن نفسه، ومن أصدق من الله حديثاً لا أحد .

وجملة: "إنّا على ذهابه لقادرون" فى موضع نصب على الحال من فاعل "أنزلنا" العائد على ضمير لفظ الجلالة .

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ :

ومن الجمال البلاغى، وصف النخل والعنب بأن ثمرها جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يتفكه بها، وطعام يؤكل رطباً ويابساً .

أما فى قوله تعالى: (ومنها تأكلون) "فيجوز من قولهم يأكل فلان من حرفة يحترفها، ومن ضيعة يغتلها ومن تجارة يتربح بها، يعنون أنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون"(٨٣).

وتكون بذلك مجازاً مرسلاً أى: تأكلون وترزقون بسبب العمل بها، وجائز أن يكون التعبير "ومنها تأكلون" كناية عن التعيش والارتزاق .

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾:

الواو عاطفة شجرة على جنات: أى ومما أنشىء لكم شجرة أما "طور سيناء" وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون. وإما أن يكون اسماً للجبل مركب من مضاف ومضاف إليه كامرىء القيس ومنه نودى موسى عليه السلام.

ومن الجمال البلاغى فى قوله: "تنبت بالدهن" على قراءة ضم التاء وكسر الباء، مجاز عقلى حيث أسند الإنبات إلى الشجرة والمنبت هو الله - تبارك وتعالى - .

وفى "الدهن" مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، لأن المنبت هو ثمرة الزيتون التى يستخلص منها الدهن .

"وقرأ الأعمش سينا على القصر (بالدهن) فى موضع الحال: أى تنبت وفيها الدهن، وقرىء تنبت، وفيه وجهان أحدهما أن أنبت بمعنى نبت وأنشد قول زهير:

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

والثانى أن مفعوله محذوف: أى تنبت زيتونها وفيه الزيت"(٨٤).

وفى قوله "وصبغ" استعارة إذ الصبغ للثوب واستعير هنا لاختلاط الدهن بالخبز، فهو ينغمس فيه ويلون به للائتدام .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ :

ومن الجمال البلاغى إنزال عدم الإنكار منزلة المنكر فى قوله:

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة) حيث التأكيد (بأن، واللام، والجملة الاسمية) وهو ما يشير إلى غفلة الإنسان عن هذه النعمة والمنة من الله- تبارك وتعالى- وعن تدبرها وحسن شكرها، ولذلك عاملهم معاملة المنكر للنعمة فأكد لهم الكلام .

والجملة الثانية: "تسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون".

جاءت الجملة الثانية تفصيل وإيضاح وبيان لجملة "إن لكم فى الأنعام لعبرة" وكأنه يشرح لهم العبرة، وهذا الجمال البلاغى فى التعبير يظهر جلياً فى الضمائر التى تعود على الأنعام بمعان مختلفة، وهو ما يعرف فى البديع بالاستخدام، حيث يذكر اللفظ بمعنى، ويعود إليه الضمير أو الضمائر بمعان أخرى. وإذا رجعنا إلى الضمائر فى: "بطونها – فيها – منها – وعليها).

نجد أن الضمير الأول يعود إلى منفعة اللبن على اعتبار أن المسقى اللبن لا العلف، كما أن الضمير يعود بمعنى الإناث فقط منها دون الذكور التى لا تحلب .

أما الضمير فى "فيها، ومنها" بمعناها العام .

والضمير فى "عليها" بمعنى ما يركب منها أى يعود إلى البعض الذى يستخدم للركوب دون غيره .

وبذلك يكون الضميران فى "بطونها وعليها" مجازاً مرسلاً علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأريد البعض .

وذكر هذه المنافع المصرح بها للدلالة على التنويه بعظم الانتفاع بها، حيث السكوت عن منافع كثيرة لم تذكر، ولكن أشار إليها فى قوله: "ولكم فيها منافع كثيرة" وهى دلائل على عظمة الله فى كونه، وفى ذلك قوله فى موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾[٨٥].

٤- وحدة الديانات وحلقات الصراع بين الحق والباطل

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ{٢٣} فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ{٢٤} إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ{٢٥} قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ{٢٦}﴾:

في ظلال الآيات :

وتنتقل بنا الآيات إلى أبى البشرية الثانى "نوح" عليه السلام يذكرها القرآن الكريم عظة وعبرة لأمة محمد ﷺ.

فيخبرنا – تبارك وتعالى- عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره وكذب رسله، ودعاهم إلى عبادته وحده، فليس لهم إله غيره، ولكن السادة والأكابر منهم قالوا: ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم. وهى نظرة قاصرة، وفلسفة مريضة وسفاهة عمياء، أن ينظروا إلى شخصية نوح عليه السلام دون التفكير فى الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، وهم يشفقون على سلطانهم أن يزول، فهم لذلك يثيرون عليه قومهم طمعاً فى القضاء عليه فلا يبقى أما سلطانهم من يهدمه .

وهذا الإنكار لبشرية الرسل من قوم نوح هى إساءة إلى البشرية كلها، البشرية التى كرمها الله إذ جعل رسله من بينها .

وهم بفطرتهم يعرفون أن للكون إلهاً، وأن له ملائكة .

ولذلك قالوا: "ولو شاء الله لأنزل ملائكة"، ولكن سفاهتهم حالت دون أرواحهم وتلك النعمة العلوية التى تصل البشر بالملإ الأعلى، وتجعل المصطفين من البشر صالحين لأن يتلقوا كلمة الله إلى أخوانهم من البشر، وينقذوهم من الضلال المبين .

ولأن الباطل أصيل فى أنسابهم، فلم يجدوا للحق نظير عند أبائهم وأجدادهم فقالوا: "ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين" لأن منطق التقليد عندهم أصح من منطق الفكر الذى ينبغى أن يكون هو المقدم .

وهذا تجميد لفكرهم وحياتهم، وتوقف للحركة الفكرية والوقوف بها عند ما ورثوه عن الآباء الأولين غير مؤمنين بتقدم البشرية، فما سمعوا فى آبائهم بإرسال الله بشراً رسولاً، أو بالتوحيد الذى جاء به نوح ﷺ، ومن عجيب منطقهم وخبل عقولهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر .

وهؤلاء أصحاب المنطق المريض يتهمون داعى الله، ورسول التحرر، من عبودية الحجر والبشر، إلى عبودية خالق البشر، يتهمونه بالجنون فى تبجح وعناد فيقولون: "إن هو إلا رجل به جنة".

ويقولون لقومهم انتظروا واصبروا حتى يفيق من جنونه، أو يأخذه الموت ويريحكم منه ومن دعوته .

فلما لم يجد نوح ﷺ منفذاً إلى هذه القلوب المتحجرة، ولم يجد موئلاً من السخرية والأذى لجأ إلى ربه يشكو إليه هذا العناد والتكذيب ويسأله النصر على من كذبوه وعاندوه .

لقد تحمل جمودهم وتعنيبهم وسخريتهم زمناً، وحاول هدايتهم فذهبت محاولاته بدداً وبقوا حيث هم جامدين فطلب من الله أن يصبح بهم ويبترهم، ليفسح الطريق أمام مسيرة الحق، وعبادة الله الحق .

التحليل البلاغى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾:

ومن الجمال البلاغى تقديم قصة نوح ﷺ على سائر القصص مما لايخفى وجهه، فقد وردت إثر قوله تعالى: (وعليها وعلى الفلك تحملون) وهذا من حسن الموقع ما لا يوصف .

"ولقد أرسلنا نوحاً" اللام واقعة فى جواب قسم محذوف، والواو قيل للاستئناف، وتصديرها بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها .

والقوم: الجماعة من الرجال والنساء معاً، أو الرجال خاصة، أو تدخله النساء على التبعية، ويجمع على أقوام .

وفى نسب القوم إليه فى قوله: "إلى قومه" ما يدل على خصوصية رسالته فقد أرسل إلى قوم مخصوصين .

فقال. متعطفاً عليهم ومستميلاً لهم إلى الحق: "يا قوم اعبدوا الله" أى اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ﴾(٨٦).

وترك التقييد به للإيذان بأنها هى العبادة فقط، وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة فى شىء .

ومن الجمال البلاغى فى قوله تعالى: (مالكم من إله غيره)، التى وقعت استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها، فكان الجمال فى قصر صفة الألوهية على الله – سبحانه وتعالى – قصراً حقيقياً تحقيقاً .

وفى قوله تعالى: (أفلا تتقون) فجاءت الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى: (مالكم من إله غيره). فلا تتقون عذابه تعالى الذى يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده وإشراككم به عز وجل فى العبادة. والمنكر هنا عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه .

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَـذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾:

والملأ: هم أشراف القوم وجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم، وسموا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه .

والكفر: نقيض الإيمان، يقال كفر بالله، كفر النعمة: جحدها فلم يشكرها، وكفر نعمة الله وكفر بها أى: جحدها وسترها .

ومن الجمال البلاغى قوله تعالى تعبيراً عما قاله الكافرون من قوم نوح وهم أشراف القوم وصفاً لنوح عليه السلام: (ماهذا إلا بشراً مثلكم).

فكأنهم استخدموا أسلوب القصر لنوح عليه السلام على صفة البشرية لايتعداها، من غير فرق بينكم وبينه، وفى ذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة فهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً .

"وفى قوله: (يريد أن يتفضل عليكم) فيه الحث على إغضاب المخاطبين عليه السلام وإغراء لهم على معاداته .

والتفضل طلب الفضل وهو كناية عن السيادة"(٨٧).

كأنه قيل: يريدأن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم.

"وقيل: صيغة التفعل مستعارة للكمال فإنه ما يتكلف له يكون على أكمل وجه"(٨٨).

فكأنه قيل: يريد كمال الفضل عليكم .

وفى ذلك صرف الناس عن جوهر الحقيقة، فإذا الحقيقة تختفى وتصبح القضية رجل منهم لا يفترق عنهم فى شىء؛ ويريد أن يتفضل عليهم.

﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾:

والجمال البلاغى فى استخدامه "أنزل" بدلاً من أرسل فهو مجاز مرسل علاقته اللزومية. لأن إرسال الملائكة يستلزم نزولهم، فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مفعولة .

والتقدير: ولو شاء الله تعالى عبادته وحده لأنزل ملائكة يبلغوننا ذلك عنه عز وجل، وكان هذا منهم طعن فى قول نوح عليه السلام لهم (اعبدوا الله).

وفيها بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته ﷺ، وأيضاً معرفتهم أن للكون إلهاً، وأن له ملائكة .

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾:

فما سمعوا فى آبائهم بإرسال الله بشراً رسولاً، أو بالتوحيد الذى يأمرهم به نوح ﷺ.

وهذا طعن فيما ذكر على التقدير الأول وذلك بناء على أن "هذا" إشارة إلى الكلام المتضمن الأمر بعبادة الله – عز وجل – خاصة والكلام على تقدير مضاف: أى ما سمعنا بمثل هذا الكلام فى آبائنا الماضين قبل بعثته ﷺ وقدر المضاف لأن عدم السماع بكلام نوح المذكور لا يصلح للرد فإن السماع بمثله كاف للقبول .

ويمكن الإشارة "بهذا" تكون إشارة إلى نوح ﷺ على معنى ما سمعنا بخبر نبوته .

﴿إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾:

به جنة: أى به جن (يخبلونه)، هؤلاء أصحاب المنطق المجنون يتهمون داعى الله ورسول التحرر والانطلاق من أغلال التقليد الأعمى، يتهمونه بالجنون فى تبجح وعناد .

والجمال البلاغى فى هذا الاتهام استخدامهم أسلوب القصر، قصر له ﷺ على صفة الجنون أو على مجىء الجن واتصالهم به فهم "يخبلونه".

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾:

الحين: زمن من الوقت غير معلوم المدة .

لأنهم لا يقصدون وقتاً معيناً يتربصون بنوح حتى يأتى هذا الوقت، وإنما يريدون أن يقولوا لقومهم احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلى أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾:

وفى قوله: "قال رب انصرنى" استئناف بيانى وكأن سائلاً سأل: فماذا قال ﷺ؟ فأجيب: "قال رب انصرنى.." ولأنهم يريدون قتله، ففى نصرته إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى، أو انصرنى بدل ما كذبونى كما تقول هذا بذاك. والمعنى: أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم. وذلك لأنه تحمل جمودهم وتعذيبهم وسخريتهم زمناً طويلاً .

٥- استجابة الدعاء وهلك الظالمين

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ{٢٧} فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٢٨} وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ{٢٩} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ{٣٠}﴾(٨٩).

في ظلال الآيات :

استجاب الله تبارك وتعالى دعوة نوح، فهو سبحانه لن يخذله، فأوحى إلى نبيه: اصنع الفلك والله يرعاك ويحفظك فلن يصل إليك أذى، ولن يفسد عملك مفسد .

ورسم له – سبحانه وتعالى – كيف يصنع سفينة النجاة لتحمل الحق إلى شاطئ الأمان، حين يعصف الطوفان بالباطل ليغرقه؛ لتمضى سنة الله فى إزالة العقبات المتحجرة فى سبيل دعوة الحق إلى الناس .

فإذا حان أمر الله بتعذيب قوم نوح وإغراقهم جعل علامة البدء بالتعذيب أو التطهير أن يفور الماء من موقد النار، فيخرج الله سبب الغرق من موضع الحرق (النار)، ليكون أبلغ فى الإنذار والاعتبار .

وأمره أن يأخذ من الحيوان والطير والنبات من كل صنف زوجين ذكراً وأنثى ليكون بذرة الحياة الجديدة .

فمن كفر وكذّب فقد ظلم وسقط قدره وانقطعت الروابط بيننا وبينه، حتى وإن كانت أقدس الروابط – الأبوة والبنوة – وقد كان لنوح – عليه السلام – زوجة كافرة سبق عليها القول، فاستحقت كلمة الله وسنته النافذة: الهلاك للكافرين، وكان له ابن كذب بالله، وكفر برسالته، فقطع بيده الروابط التى بينه وبين والده .

قال تعالى:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٩٠).

وعاد نوح إلى ربه، وعدّ إشفاقه على ولده العاصى ذنباً يستغفر منه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٩١).

وهكذا صدر أمر الله لنوح (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا).

فقد سبق القضاء وحقت كلمة العذاب (إنهم مغرقون).

وليس أمام نوح عليه السلام إلا أن يخضع للأمر، ويرضى بالقضاء بعد هذا التوكيد "إنهم مغرقون".

وقد أمر الله – تبارك وتعالى – نوحاً عليه السلام، بأنه عندما يتمكن من السفينة راكباً هو ومن معه، أن يحمدوا الله على النجاة من القوم الظالمين، لأن نجاتهم من الطوفان المخيف سيكون مأموناً بإذن الله، وفى ذلك يقول سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٩٢).

فاسم الله يحدوها من كل مكان يوفر السلامة والأمان، ولمن فيها النجاة من الظالمين .

فسفينة النجاة منزل، يوجه الله – عز وجل – نوحاً إلى تلك الدعوة الطيبة: أن يجعله منزلاً مباركاً، فإن كان نزل فيها حققت له النجاة من الطوفان المهول الذى قذفته الأرض وانهمرت به السماء، وإن نزل منها إلى اليابسة كان منزلاً مباركاً فيه أيضاً بكثرة النسل وتتابع الخيرات .

والخير كله من عند الله يسوق عباده المؤمنين إلى منازلـــه، لتكـــون حسنى العاقبة لهم .

ثم تختم قصة نوح ﷺ بأن مافعله الله بنوح وقومه آيات عبر وعظات ابتلى بها الله – عز وجل- نوحاً وقومه بل إنها لابتلاء لعباده الذين أتوا من بعد هذا النبى ﷺ لعلهم يتعظون فيرجعون إلى الله فيؤمنون به، ويصدقون أنبياءه، ويعبدونه حق العبادة ويشكرون له نعماءه .

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(٩٣).

التحليل البلاغى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾:

يطلق الوحى على الإشارة والكتابة والرسالة والإلهـــام والإيمـــاء والكـــلام الخفى.

فأوحينا إليه: عقيب قوله: "رب انصرنى بما كذبون" وقيل بسبب ذلـــك: "أن اصنع الفلك": السفينة، تذكر وتؤنث .

أن: مفسرة لما فى الوحى من معنى القول .

بأعيننا: ملتبساً بمزيد حفظنا ورعايتنا لك من التعدى .

أو من الزيغ فى الصنع، والجار و المجرور متعلق بمحذوف وقع حـــالاً من فاعل"اصنع".

ووحينا: وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها .

والجمال البلاغى فى قوله: "بأعيننا" كأن معه من الله حفاظـــاً يلكئونـــه بعيونهم لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله .

وفى الآية إيجاز بوعد الحفظ من الله تبارك وتعالى لنبيه، ومـــن معـــه حتى يتم اكتمال صنع السفينة .

﴿فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾:

والفاء: لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع الفلك .

والتعبير بإذا التى تفيد تحقق الأمر والقطع بوقوعه،

والأمر هنا: عذاب الله وانتقامه والمعنى: فإذا جاء أمر الله وحل عذابه وانتقامه، والعلامة لبدء العذاب أن يفور الماء من التنور (موقد النار). ويطلق أيضاً على وجه الأرض وفار التنور: بيان وتفسير لمجئ الأمر(٩٤).

ومن أتون الفتن يتفجر الماء الذى يغسلها ويترك الناس أطهاراً .

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾:

"فاسلك فيها" أى: أدخل، يقال: سلك فيه أى: دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾(٩٥). "أى ما أدخلكم فيه وصيركم إليها.."(٩٦).

أى من كل أمة "زوجين" أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى: "اثنين" فإنه ظاهر فى الفردين دون الجمعين .

وقرأ أكثر القراء "من كل" بدون تنوين على الإضافة، على أن المفعول (اثنين) أى: اسلك من كل أمتى الذكر والأنثى واحدين مزدوجين كجمل وناقة، وحصان ورمكة، وروى أن نوح ﷺ لم يحمل فى الفرك من ذلك إلا ما يلد ويبيض، وأما ما يتولد من العفونات كالبق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منه .

وأهلك: عطف على اثنين على قراءة الإضافة، وعلى (زوجين) على قراءة التنوين، ولا يخفى اختلال المعنى عليه فهو منصوب (مفعول به) لفعل محذوف والتقدير: واسلك أهلك والمراد بهم أمة الإجابة الذين آمنوا به ﷺ سواء كانوا من ذوى قرابته أم لا وجاء إطلاق فى الأهل فى ذلك وقال تعالى فى سورة هود: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(٩٧).

ومن الجمال البلاغى تقديم إدخال الأزواج على الأهل، لأن إدخال الأزواج يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه ﷺ وإلى معاونة الأهل، وأما هم فيدخلون باختيارهم، وأيضاً فإن فى المؤخر ضرباً من التفصيل بذكر الاستثناء وغيره، فتقديمه يخل بتجاوب النظم الكريم ..

﴿ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾:

وحمل الأهل ليشمل من آمن ممن ليس ذا قرابة فيكون: "إلا من سبق عليه القول استثناء منقطعاً" .

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٩٨).

واختار بعضهم حمل الأهل على المشهود وإرادة امرأته، وبنيه منهم وحينئذ يكون الاستثناء متصلاً كما كان هناك فى سورة هود، وعدم ذكر من آمن للاكتفاء بالتصريح به ثمة مع دلالة ما فى الاستثناء .

حيث كان له ابن كذب بالله وكفر برسالته، فقطع بذلك الروابط التى بينه وبين والده، وعندما أخذت نوح ﷺ الشفقة بولده ورجا له الإيمان والأمان، فأجابه الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٩٩).

فرجع نوح ﷺ إلى ربه وعدّ إشفاقه على ولده العاصى ذنباً يستغفر منه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١٠٠).

وهكذا صدر أمر الله لنوح "لاتخاطبنى فى الذين ظلموا" فقد سبق القضاء وحقت كلمة العذاب "إنهم مغرقون".

ومن الجمال البلاغى فى قوله تعالى: "إنهم مغرقون" فقد فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى لأنها تعليل للنهى عن المخاطبة، أو لما ينبىء عنه من عدم قبول الشفاعة .

كما أكدت بمؤكدين (إن + الجملة الاسمية) وذلك لانشغال نوح عليه السلام تساءل هل سيغرقون؟ فكانت الإجابة بالتوكيد "إنهم مغرقون" تثبيتاً وتقريراً وإجابة لهذا الانشغال لأن عدم قبول الشفاعة لهم أى أنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصى، كما أن فى هلاكهم نعمة من الله لنوح عليه السلام يجب أن يحمد الله عليها .

والجمال البلاغى أيضاً فى قوله تعالى: "الذين ظلموا" فإذا كان المراد بهم من سبق عليه القول فالإظهار فى مقام الإضمار تسجيلاً عليهم .

قلت: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة، لما عرف من المصلحة فى غراقهم، والمفسدة فى استبقائهم .

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

استويت: تمكنت عليها راكباً .

ومن الجمال البلاغى: أمر الله – تبارك وتعالى – نوحاً – عليه السلام ومن معه أن يحمدوا الله على النجاة، ولكن أفرده عليه السلام بالأمر (قل) مع شركة الكل فى الاستواء. وكأن قومه مخاطبين فى شخصه، وفى هذا إشعار بقيمة النبوة ومكان الداعى فى قومه، فهو الذى يشرف ويفوز بعز الحضور فى مقام الإحسان .

الجمال الثانى: الإيماء إلى كبرياء الله – عز وجل – وأنه سبحانه لايخاطب كل أحد من عباده. والإشعار بأن فى دعائه عليه السلام وثنائه مندوحه عما عداه .

الجمال الثالث: فى قوله "قل: الحمد لله الذى نجانا" فهو متضمن وعد الله لنوح عليه السلام ولمن معه من المؤمنين بالنجاة من الطوفان المخيف، حيث القول بالحمد على النجاة مع بداية الاستواء لنوح عليه السلام ومن معه. وفى ذلك قوله تعالى فى سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١٠١).

فاسم الله يحدوها فى كل مكان يوفر السلامة والأمان ولمن فيها النجاة من الظالمين .

الجمال الرابع: فى قوله: "الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين" ولم يذكر إهلاكهم، لأن الحمد على الإنجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم، ولأن نعمة الإنجاء أتم من نعمة الإهلاك .

الجمال الخامس: ويتضمن الإشارة إلى أنه لا ينبغى أن يسر بمصيبة أحد ولو عدو من حيث كونها مصيبة له"[١٠٢].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾:

فسفينة النجاة منزل، يوجه الله – عز وجل- نوحاً – عليه السلام- إلى تلك الدعوة الطيبة. أن يجعله منزلاً مباركاً .

ومن الجمال البلاغى تكرار فعل الأمر (قل) لتعدد الدعاء، الأول متضمن دفع المضرة: "الحمد لله الذى نجانا" والثانى لجلب المنفعة: "رب أنزلنى منزلاً مباركاً" ولذا كان تقديم الأول لأن درأ المفاسد مقدم على جلب المنافع.

فإن كان نزل فى السفينة حققت له النجاة من الطوفان المهول، الذى قذفته الأرض وانهمرت به السماء، وإن نزل منها إلى اليابسة كان منزلاً مباركاً فيه أيضاً بتتابع الخيرات فى الدارين .

ويشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله "وأنت خير المنزلين" فإن قلت: هلا قيل فقولوا لقوله: (فإذا استويت أنت ومن معك) لأنه فى معنى فإذا استويتم؟ قلت .

ومن الجمال فى قوله: "وأنت خير المنزلين" أى من يطلق عليه ذلك، وفى الدعاء بذلك ما يدل على طلب إدامة البركة، وجوز أن يكون دعاء بالتوفيق للنزول فى أبرك منازلها لأنها واسعة .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾:

ومن الجمال البلاغى: حذف مفعول "مبتلين" للعموم – ولتذهب النفس كل مذهب، ويجد مختلف الناس كل متعظ، فالابتلاء أنواع كثيرة: ابتلاء

للتوجيه، وابتلاء للتأديب والتقويم، وابتلاء للأجر، وآخر للشكر، وابتلاء للصبر والتمحيص وابتلاء للاعتبار والتطهير، وفى قصة نوح عليه السلام. آيات من الابتلاء له ولقومه المؤمنين والكافرين، ولكافة من أتى بعده من الأنبياء والمرسلين، ولأتباعهم جميعاً والكافرون والمؤمنون فى ذلك سواء.

٦- حلقة ثانية من الصراع بين الحق والباطل

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ{٣١} فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ{٣٢} وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ{٣٣} وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ{٣٤} أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ{٣٥} هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ{٣٦} إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{٣٧} إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ{٣٨} قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ{٣٩} قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ{٤٠} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٤١} ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ{٤٢} مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٤٣} ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ{٤٤}﴾[١٠٣].

فى ظلال الآيات:

قوله تعالى: "ثم أنشأنا من بعدهم" أى من بعد هلاك قوم نوح "قرناً آخرين" قيل هم قوم عاد، حيث أرسل الله رسولاً منهم يعنى هوداً عليه السلام. لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد، وقيل هم قوم ثمود "فأرسلنا فيهم رسولاً" يعنى: صالحاً، قالوا والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية "فأخذتهم الصيحة"؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ

آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾[١٠٤].

وممن أخذ بالصيحة أيضاً أصحاب مدين قوم شعيب ﷺ فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلى وأعلم[١٠٥].

والرأى ما ورد فى التعليق على تفسير ابن كثير أن الآية أعم من ذلك، فإن الله لم يدع أمة إلا أرسل فيها رسولاً، ولم يقص علينا فى كتابه غير أخبار بعض الأنبياء. وهذه الآية تتحدث عن أحدهم الذين لم يصرح القرآن بأسمائهم، ولو كان المراد به هوداً أو صالحاً لصرحت الآية بذلك[١٠٦].

ومهما يكن من أمر فقد اختار الرسول من قومه إشفاقاً عليهم، فما هم بمستطيعين أن يتلقوا رسالة عن ملك، وتقديراً للجنس البشرى، إذ يختار الله رسوله منهم .

ولكن هؤلاء المعاندين تلقوا هذا الإشفاق بالتنكر، وذلك التقدير بالنكران. وقد دعاهم هذا الرسول نفس الدعوة التى حملها من قبل نوح ﷺ وهى: "أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون".

تولى المترفون كبر تكذيب الرسول، وكأن الترف قد أفسدهم، وأعمى بصائريهم فأنكروا البعث بعد البلى، واستبعدوا اللقاء فى الآخرة، لقاء الحساب والجزاء، وكان عليهم أن يشكروا المنعم المتفضل على ما رزق وأغدق، بالإيمان به وتصديق رسوله، ولكن غشيهم الترف الموقوت بالحياة الدنيا، وما قيمة ترف فى حياة هى دنيا؟ إنه الترف الزائف الزائل الذى أفسدهم: قولاً وحجة وفكراً فسخروا برسولهم "ماهذا".

واستبعدوا أن يكون الرسول منهم، وظنوا أن اتحاد المأكل والمشرب يوحد بين الآكلين والشاربين، منكرين تفاوت البشر فى دنيا الفكر والصفاء والوجدان، فتلك حجتهم فى رفض الرسالة والرسول .

لقد ذهب هؤلاء المترفون يحذرون قومهم من اتباع رسولهم، حاشدين المؤكدات "ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون" وهم بذلك يخدعون قومهم ولا هم لهم إلا بقاء سلطان زائف، وغرور كذاب .

ويتمادون فى تضليل قومهم، فينكرون فى تعجب خادع ما يعدهم به الرسول: البعث بعد الموت، فيستبعدون فى تبجح الحياة الآخرة، ويؤكدون فى غفلة أن الموت الذى يحولهم إلى تراب ورفات هو النهاية التى لا بعث بعدها ولا نشور، ناسين أو متناسين أن هناك حياة ثانية، فيها يلقى المؤمنون جزاء الإيمان، ويذوق الكافرون جزاء الكفر .

فهم يرون أن الذين ماتوا بعد حياتهم وصاروا عظاماً وتراب لا حياة لهم، وبعيد أن تكون لهم حياة بعد الموت، فلا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الذى خلق العالم ابتداء يسير عليه أن يعيد خلقه بعد فنائه، والإعادة أيسر من البدء .

كما ينكرون الإيمان الذى هو من دواعى الفطرة، ويزيدون باتهامهم رسولهم بالافتراء على الله، ولو تأملوا لعلموا أن فى طى هذا التنكر ما يبطله ويشهد عليهم بالزيف والعمى والضلال .

فهم يقولون: إن هذا الرجل يفترى على الله، فمن هو الذى يفترى عليه هذا الرجل؟ أليس هو الإله الذى تقر به الفطرة، وتشهد بوجوده الغريزة؟

فهم يؤمنون بربوبية الله – تبارك وتعالى – وينكرون اتباع رسوله فى دعوته بألوهية الله – عز وجل – ولذا يقولون "وما نحن له بمؤمنين" ولن يضروا بهذا القرار إلا أنفسهم، ولن يقبل الله إيمانهم به ما داموا لا يؤمنون برسوله، فالإيمان لا يتجزأ .

ولم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصر نوح من قبل، وبالعبارة نفسها التى توجه بها نوح فى قوله: "رب انصرنى بما كذبون". مع اختلاف اللغات التى كانت تتخاطب بها القرون .

واستجاب الله، فما كان ليخذل رسوله وقد اصطفاه ليبلغ كلمته إلى خلقه فلئن أوذى فى سبيله، فصبر وصابر حتى ضاق ذرعه فاستنجد بربه فلابد أن يؤازره ويناصره .

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز).

وكيف لا يعذبهم، وكيف لا يستجيب لرسوله، وقد تمادى قومه، ويدل على تماديهم هذه المؤكدات التى احتوتها مقالاتهم .

فاستجاب الله – تبارك وتعالى- بعد أن استوفى هؤلاء أجلهم، فتوعدهم الله بالندم حيث لا يجدى الندم ولا ينفع المتاب؛ فقال تعالى: (عما قليل ليصبحن نادمين).

ثم أخذهم بصيحة هزت ديارهم فزلزلتها، وأتت على كل شىء فيها، وذلك الانتقام حق، وما كان لله الحق أن يأخذ إلا بالحق، وتلك كلمته الباقية إلى يوم الدين. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾(١٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(١٠٨).

وقد ترك انتقام الله المكذبين غثاء لا قيمة له، فضلوا عن حكمة وجودهم فى الدنيا، فانقطع ما بينهم وبين الملأ الأعلى لقد طردهم الله من رحمته، فأهلكهم وأقصاهم عن هذه الحياة، لأنهم لا يستحقون الحياة .

ثم تتابع القرون أمة بعد أمة، ورسولاً بعد رسول، وتتوالى الأمم، وتتواتر الرسل، ولكل أمة أجل ورسول، يمهدان لمن يأتى بعدهما من الأمم والرسل، ويصير السالفون أحاديث الخالفين، ويظل الحسد البشرى يغشى القلوب، فينفس الإنسان على أخيه الإنسان أن يخصه الله برسالته، أو يختاره بوحى، أو يخصه بنبوة، فيتعالى عليه ويستنكف من الإيمان به، وتتكرر إرادة الله: القضاء على المترفين المتعالين المتكبرين، ليكون ذلك آية منه – عز وجل- على كراهية الكبر والمتكبرين .

التحليل البلاغي:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾:

القرن: الجيل من الناس أو أهل كل مدة كان فيها نبى، وللقرن معان أخرى كثيرة تستقصى فى كتب اللغة .

وقد اختلف المفسرون فى هؤلاء الذين أنشأهم الله بعد إهلاك قوم نوح، فقيل هم عاد قوم هود لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(١٠٩). وكذلك مجىء قصة هود على إثر قصة نوح فى سورتى هود، والشعراء .

وقيل هم ثمود قوم صالح، لأنهم هم الذين أهلكوا بالصيحة .

والجمال البلاغى فى قوله تعالى (فأرسلنا فيهم رسولاً منهم). حيث عدى فعل الإرسال بفى، على الرغم من أنه يتعدى بإلى، للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، "بل نشأ فيهم، بين أظهرهم يعرفون نسبه ومولده. وجاءت بعدها "منهم" للتوكيد على ذلك أى من عشيرتهم"(١١٠).

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ :

أن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله، "وجوز كونها مصدرية ولا مانع من وصلها بفعل الأمر، قبلها جار مقدم أى أرسلنا فيهم رسولاً بأن اعبدوا الله وحده"(١١١).

"مالكم من إله غيره" استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الأمر بها، و"غيره" بالرفع صفة لإله باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه فاعل – بلكم – أو مبتدأ خبره لكم .

"أفلا تتقون": الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى (ما لكم من إله غيره) فلا تتقون عذابه تعالى الذى يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده، وإشراككم به عز وجل فى العبادة ما لا يستحق.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾:

ومن الجمال البلاغى: تقديم الجار والمجرور "من قومه" على الصفة "الذين كفروا..." ففصل به بين الصفة والموصوف، مع تأخيره فى القصة السابقة، لئلا يطول الفصل بين البيان والمبين، لو جىء به بعد الصفة "وما فى حيزها مما تعلق بالصلة مع ما فى ذلك من توهم تعلقه بالدنيا أو يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه لو جئ به بعد الوصف وقبل العطف"(١١٢).

"وأترفناهم فى الحياة الدنيا" أى نعمناهم ووسعنا عليهم فيها على الصلة فيكون صفة معنى للموصوف بالموصول والمتعارف إنما هو وصف الإشراف بالمترفين دون غيرهم وكذا الحال إذا لم يعطف وجعل حالاً من ضمير "كذبوا". والظاهر لفظاً عطف جملة (أترفناهم) على جملة الصلة والأبلغ معنى جعلها حالاً من الضمير لإفادته الإساءة إلى من أحسن وهو أقوى فى الذم.

وفى قوله: "ما هذا إلا بشر مثلكم" مبالغة فى تهوين أمر الرسول ﷺ. وقصره عن صفة البشرية دون غيرها، والرسول فى زعمهم لا يكون بشراً. إنه الترف .

وفى قوله: "يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون" تقرير للمماثلة، والظاهر أن "ما" الثانية موصولة والعائد إليها ضمير مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه .

وهذا لا يجوز عند البصريين، و"ما" إذا كانت مصدرية لم تحتج إلى عائد. "ويمكن أن تكون "ما" موصولة والعائد المحذوف ضمير منصوب على المفعولية متصل بالفعل والتقدير مما تشربونه"(١١٣). وكأن هذا الملأ المترف يعيش ليأكل ويشرب، ولا يزال البشر فى منطقهم متساوين ما دامت تجمعهم أوانى الطعام وموارد الماء .

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾:

والجمال البلاغى فى حذف القسم، والتقدير: والذى نقسم به إنكم لخاسرون، حيث ينبىء حذف القسم ببعد المقسم به، وضرورة أن ينزه النظم الكريم عن ذكره. فهم يقسمون بالأصنام .

والجمال الثانى: حذف جواب الشرط والمضاف إليه الظرف .

والتقدير: إن أطعتم بشراً مثلكم تخسروا عقولكم، وتغبنوا فى آرائكم، إذا أذللتم أنفسكم بطاعة بشر مثلكم .

حيث فى حذفهما إيماء إلى ضرورة أن تنزه عقولهم عن الخسران وآراؤهم عن الغبن، وأنفسهم عن الذل، فلا ينسب ذلك إليهم فى اللفظ، لاعتقادهم أن عقولهم وآراءهم وأنفسهم بمنأى عن ذلك، ولا ينسب إليها إلا ما يدل على الرفعة والسمو .

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾:

و"أن" الأولى فى موضع نصب بوقوع "يعدكم" عليها، والثانية يدل منها، هذا مذهب سيبويه. والمعنى: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم – وذهب الفراء والجرمى وأبو العباس المبرد إلى أن الثانية مكررة للتوكيد، لما طال الكلام كان تكريرها حسن(١١٤).

والجمال البلاغى فى الاستفهام "أيعدكم" يفيد الإنكار، إنكار وقوع ما يدعوهم للإيمان به، واستبعاده، وتكرار "أنكم" يفيد المبالغة فى إنكار واستبعاد وقوع ما يدعوهم للإيمان به .

وتقديم التراب على العظام فى قوله: "وكنتم تراباً وعظاماً" يفيد شدة الاستنكار .

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾:

"قال ابن عباس- رضى الله عنهما - هيهات: هى كلمة للبعد، كأنهم قالوا بعيد ما توعدون؛ أى أن هذا لا يكون ما يذكر من البعث. وقال أبو على: هى بمنزلة الفعل؛ أى بعد ما توعدون"(١١٥).

والجمال البلاغى فى تكرار "هيهات" يفيد المبالغة فى إنكار واستبعاد وقوع ما يدعوهم للإيمان به، فهم يجزمون فى تبجح واضح بأن ليس هناك إلا حياة واحدة، وموت واحد .

﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾:

الجمال البلاغى: وضع للضمير موضع الظاهر، وهذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله: إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع هى موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها وبينها .

والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة، لأن إن النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها نفى الجنس (نموت ونحيا).

فعندما يأتى الخبر مفسراً له ومبيناً يقر فى النفس ويتأكد وتأنس به.

والجمال الثانى: استخدام أسلوب القصر الذى يفيد التوكيد مما يدل على المبالغة فى إنكار البعث .

وجملة "نموت ونحيا" بيان وتفسير للجملة قبلها، وهى استئناف بيانى، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال تقع الثانية جواباً له وكأن سائلاً سأل: كيف لا تكون الحياة إلا حياتكم الدنيا ؟

فجاء الجواب: نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، وأرادوا بذلك يموت بعض ويولد بعض. وهذا هو سر الفصل بين الجملتين .

الجمال الثالث: استخدام الجملة الإسمية لتوكيد النفى والدلالة على استمراره ودوامه فى "وما نحن بمبعوثين".

﴿إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾:

ثم قالوا: ماهو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه لـه، وفيما يعدنا من البعث وما نحن بمصدقين .

والجمال البلاغى: اعترافهم بأن هذا الرسول افترى على الله كذباً هو اعتراف ضمنى بالله الواحد الأحد، والسؤال المطروح من هو الله الذى يفترى عليه؟ أليس هو الإله الذى تقر به الفطرة .

والجمال الثانى: هو أيضاً فى استخدام الجملة الإسمية (وما نحن له بمؤمنين) التى تفيد توكيد النفى ودوامه. ولن يقبل الله إيمانهم به، ما داموا لا يؤمنون برسوله. فالإيمان لا يتجزأ .

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(١١٦).

إنهم إذ يؤمنون بالله، ويكفرون برسوله ويفترون عليه الكذب، ويدعون أنه هو الذى يفترى على الله الكذب، إنهم بذلك يخلطون إيماناً بكفر، ولا يقبل الله عز وجل الإيمان إلا خالصاً نقياً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾(١١٧).

إن ما ورد فى مقالاتهم من التكرار وإن المؤكدة، وحروف الجر الزائدة والنفى والاستثناء، والجمل الإسمية، واللام المؤكدة فى جملة قولهم التى سبقت أمثال: "ما هذا إلا بشر مثلكم" "ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون" "أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظام أنكم مخرجون" "هيهات هيهات لما توعدون" "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" "إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين".

يشير ذلك كله أن هؤلاء الكفار قد أساءوا إلى الرسالة والرسول وضلوا فى هذا المجال ضلالاً بعيداً. ولذا طلب الرسول ﷺ. نصرة رب العالمين، فدعا قائلاً "رب انصرنى بما كذبون".

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾:

طلب الرسول النصرة من ربه، كما استنصر نوح من قبل، لأنه لم يجد موئلاً من السخرية والأذى، ولم يجد منفذاً إلى هذه القلوب المتحجرة، فلجأ إلى ربه يشكو إلى هذا العناد والتكذيب .

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾:

توعدهم الله بالندم حيث لا يجدى الندم ولا ينفع المتاب، والجمال البلاغى: أولاً: فى وعيد الله تأكيد يقابل التأكيدات السابقة فى أساليب العناد: "ليصبحن نادمين".

ثانياً: "عما قليل" حذف للموصوف وزيادة لما .

والمعنى: عن زمن قليل ليصبحن نادمين، والحذف والزيادة يدلان على تأكيد معنى القلة، والمبالغة فى قصر الزمن .

ثالثاً: تأكيد آخر بالقسم المحذوف، وباللام والنون فى قوله تعالى "ليصبحن نادمين"، وبماذا يقسم الله؟ بذاته... لينتقمن لرسوله، ولينـدمن هؤلاء، عطف وحماية للرسول، وتهديد ووعيد للكافرين .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء﴾:

صيحة هزت ديارهم فزلزتها، وأتت على كل شىء فيها .

والجمال البلاغى: فى التشبيه البليغ حيث شبههم وقد أهلكوا ودمروا بالغثاء الذى يحمل السيل من الأعشاب والحشائش التى لاخير فيها ولا قيمة لها. وهذا الغثاء يذهب جفاء لأنه لا يقوى على البقاء قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾(١١٨).

وهذا ينبىء بمدى هلاكهم وتدميرهم .

﴿فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

والجمال البلاغى: "فبعداً" من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها، ومعنى: بعداً بعدوا: أى هلكوا. و"للقوم الظالمين"

بيان لمن دعى عليه بالبعد وفى ذلك يكمن الجمال حيث وضع المظهر موضع المضمر، إذ الأصل: فبعداً لهم لتقديم ذكرهم، ولكن أراد تسجيل ظلمهم، وأن إبعادهم إنما هو من أجل هذا الظلم .

فكان إهلاكهم، وأقصاهم عن هذه الحياة، لأنهم لا يستحقونها بسبب ظلمهم .

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾:

أى وعلى أثر المجتمع المادى الذى أصبح غثاء بعد أخذه بعذاب الله... أتى المولى سبحانه بمجتمعات أخرى عديدة، وكلها مجتمعات مادية تشرك بالله، ولا تؤمن باليوم الآخر، وتثير نفس القضايا، والإدعاءات، والإتهامات التى من شأن أى مجتمع مادى أن يثيرها فى وجه الرسول المرسل.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾:

وكل مجتمع يأتى فى وقته المناسب لا يسبقه ولا يتأخر عنه.

من: لتوكيد معنى الاستغراق المستفاد من النكرة الواقعة فى سياق النفى (ما تسبق). والضمير فى: "أجلها" عاد إلى "أمة" باعتبار اللفظ، وفى: "يستأخرون" عاد إليها باعتبار المعنى، وحاصل المعنى: ما تهلك أمة من الأمم قبل مجىء أجلها وما تستأخر عن ذلك الأجل ساعة ...

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾:

تترا: أى متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد .

"ثم أرسلنا" عطفاً على "أنشأنا".

والجمال البلاغى فى العطف "بثم" التى تفيد التراخى، فيكون المراد أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن السابق عليه، حيث أرسل فى كل قرن رسولاً خاصاً بهم .

والجمال البلاغى أيضاً فى قوله: "كل ما جاء أمة رسولها كذبوه" استئناف مبين لمجيء كل رسول إلى أمته، ولما وقع منهم وصدر عنهم عند التبليغ، وإضافة الرسول إليهم تدل على أن كل رسول جاء أمته الخاصة به.

ومن الجمال البلاغى فى الضمير الأول "أرسلنا رسلنا" فقد أضاف الرسول إلى الله عز وجل، وفى قوله "رسولها" أضاف الضمير إلى القوم، للإيذان بأن الإرسال الذى هو مبدأ الأمر من الله – تبارك وتعالى – والمجيء الذى هو منتهاه إلى القوم .

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

الأحاديث: اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ، وتكون جمعاً للأحدوثة مما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً، وهو المراد هنا حيث تحولوا إلى: عبرة وعظة للناس بعد إفنائهم عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم .

والجمال البلاغى فى قوله: "فبعداً لقوم لا يؤمنون" فقد اقتصر على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم فيما سبق .

إجمالاً فى دعوة الرسول: "قال رب انصرنى بما كذبون... فبعداً للقوم الظالمين" فاقتصر على وصفهم بالظلم بسبب تجاوز الحد فى الكفر والعدوان. مما يدل على جمال ودقة التعبير القرآنى .

وهنا القرآن يهدد قوماً يدعون إلى الإيمان فيتقاعسون، وظلوا على كفرهم متلبسين لم يستجيبوا لدعوة الإيمان، ولم يجروا فى كفرهم إلى نهاية الشوط، فناسب أن يعبر عن طردهم من رحمة الله بقوله: "فبعداً لقوم لا يؤمنون".

٧- استمرار الصراع بين الحق والباطل

من خلال قصة موسى عليه السلام

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{٤٥} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ{٤٦} فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ{٤٧} فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ{٤٨} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{٤٩} وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ{٥٠} ﴾(١١٩).

في ظلال الآيات :

ووصل الأمر بالرسالة الإلهية وبالرسل من قبل الله في تاريخ المجتمعات المادية... إلى موسى وهارون، مجتمع فرعون من جانب، ومجتمع بنى إسرائيل من جانب آخر .

فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعوه وملئه ليخلصا بنى إسرائيل من حكمه، وليعودا بهم إلى مساكنهم السابقة قبل هجرتهم إلى مصر، سعياً وراء لقمة العيش .

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى. قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾(١٢٠).

ولكن فرعون وزعماء المجتمع معه رفضوا رسالة موسى وهارون، استكباراً منهم وعتواً فى الأرض، فهم كانوا طغاة متغطرسين. والرفض لنفس السبب الذى تدعيه المجتمعات المادية، وهو بشرية الرسول، وعدم ارتفاعه إلى مستوى طبيعة الملائكة .

وزادوا على هذا السبب العام للرفض: سبباً آخر خاصاً، وهو أن قوم موسى وهارون الذين يسكنون مصر حينئذ، مستذلون وعبيد لفرعون وزعماء قومه .

فكيف يقبل فرعون والزعماء معه: رسالة فردين من قوم هم عبيد وأذلاء لهم؟ "فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون".

فهم لا يتصورون أن يجرؤ فرد عادى على أن يناقشهم أوضاع مجتمعهم، ويطلب إليهم تغيير هذه الأوضاع، كلاً... أو بعضاً .

فكيف يمكنهم أن يتصوروا الآن: أن يقوم بهذه المناقشة فرد أو فردان من قوم هم عبيد لهم ؟

ولم يسع فرعون وملأه أمام هذا التصور إلا أن يكذبوا موسى وهارون، ولم تكن نتيجة التكذيب إلا هلاكهم وغرقهم فى البحر، بعد أن نجا موسى وهارون ومن معهما من بنى إسرائيل فى طريق عودتهم .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(١٢١).

ثم انتقلت الآيات إلى عيسى عليه السلام وهو آية للناس جميعاً بصفة عامة، ولقومه ومن بينهم بنو إسرائيل بصفة خاصة: فهو آية دالة على قدرة الله على ما يشاء .

"وقيل أن الربوة هى: إيليا أرض بيت المقدس، وقيل دمشق وعن الحسن: فلسطين والرملة. وعن أبى هريرة: ألزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربوة التى ذكرها الله. وقيل: مصر"(١٢٢).

ويرجح بعض المفسرين أنها مصر "التى جاء إليها المسيح طفلاً محمولاً على صدر أمه"(١٢٣).

التحليل البلاغى:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾:

الآيات: المعجزات، و من معجزات موسى التى تلقى بها من ربه التأييد منها: "عصاه" التى ألقاها فانقلبت حية تأكل ما ألقى السحرة من حبال وعصى، وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وضرب بها البحر فانفلق وكان كل فرق كالطود العظيم، ومنها إدخال يده فى جيبه وإخراجها بيضاء من غير سوء(١٢٤).

السلطان المبين: هو مافى هذه المعجزات من إقناع قاهر يفحم الخصم ويحقق لموسى وأخيه هارون ما يريدان .

والجمال البلاغى فى قوله: "بآياتنا وسلطان مبين" حيث أريد بها العصا، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام، وذلك لتفردها بالمزايا حتى صارت كأنها شىء آخر مغاير للآيات .

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾:

"فاستكبروا" كان استكبار فرعون أشد من الأمم السابقة حيث كانت الأمم السابقة يتردد اسم الله على لسانها برغم كفرهم فكانوا يقولون: "ولو شاء الله لأنزل ملائكة".

ولكن فرعون ادعى الألوهية ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(١٢٥).

ولذلك كان من الجمال القرآنى أن يرد الله – تبارك وتعالى – على فرعون الذى قال عن نفسه إنه الأعلى، فقال عز وجل لنبيه: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾(١٢٦).

فكان من الجمال البلاغى فى هذا الموضع قوله: "فاستكبروا" ليعبر عن كل ما حدث بجملة واحدة .

وكذلك قوله: "وكانوا قوماً عالين" اعتراض بين المعطوف "فقالوا" وبين المعطوف عليه "فاستكبروا"، والغرض من هذا الاعتراض إبراز استكبارهم وتقريره .

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾:

وفى هذه الآية مجموعة من الجمل البلاغية اللطيفة :

١- ثنى "بشرين" على الرغم من كونه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، ولكن فى التثنية جمال ليدل بذلك إلى قلتهما وانفرادهما عن قومهما مع كثرة الملأ .

٢- الإشارة بإفراد "مثل" ليدل على شدة تماثلهم مع البشرين حتى كأنهم شىء واحد، وهذا أدل على ما عنوه من تنافى الرسالة والبشرية، فالرسول – فى زعمهم – لا يكون بشراً .

٣- وفى "عابدون" جمال لجواز حملها على الحقيقة والمجاز

أ- تحمل على الحقيقة لاتباع فرعون الذين يعتقدون بألوهيته حيث ذكر القرآن: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[١٢٧]. وقد أطاعه قومه فى هذا، ويحكى لنا القرآن فى سورة الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين).

ب- وتحمل على المجاز فى علاقته ببنى إسرائيل (اتباع موسى وهارون) لأنهم يعتقدون فى ألوهية الله تبارك وتعالى وبشرية فرعون وهنا استعارة تبعية، حيث استعيرت العبادة للخدمة، واشتق من العبادة "عابدون" بمعنى "خادمون منقادون" لأن بنى إسرائيل كانوا خادمين لفرعون وملئه .

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾:

ولم يسع فرعون وملئه أمام هذا التصور إلا أن يكذبوا موسى وهارون، ولم تكن نتيجة التكذيب إلا هلاكهم وغرقهم فى البحر .

والجمال البلاغى: فى التعقيب باعتبار آخر زمان التكذيب الذى استمروا عليه، والفاء لمحض السببية أى فكانوا بسبب تكذيب الرسولين من المهلكين .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾:

أى لقد آتينا موسى التوراة، لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها.

والجمال البلاغى فى اقتصار نزول الكتاب على موسى عليه السلام وهو الأصل وذلك يعود لسببين:

أولهما: نزول التوراة على موسى عليه السلام بالطور، وكان هارون قد خلفه فى قومه، ولذلك لم يذكر معه .

ثانيهما: عدم تصريح القرآن بذكر بنى إسرائيل فى هذا الموضع، وعبر عنهم بضمير الغيبة "لعلهم يهتدون" تحقيراً لهم لأنهم كذبوا رسولهم بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾(١٢٨).

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾:

والتعبير عن "عيسى" عليه السلام "بابن مريم" وعن مريم "بأمه": من الجمال البلاغى فى التعبير القرآنى :

وذلك فى نسبته ﷺ إليها مع أن النسب يكون إلى الآباء، دالة على ألا أب له، كما أنه آية من آيات الله فيما كان يظهر على يديه من معجزات. منها :

أ- كلّم الناس فى المهد، وعلمّه الله الحكمة والتوراة والإنجيل .

ب- أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله .

ج- وأخرج الموتى بإذن الله .

ولذلك كان تقديمه هنا كان أولى.

أما فى تقديم أمه فى آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١٢٩). لأن الحديث كان عن أصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ. ولذلك كان تقديمها فى هذا الموضع الآخر أولى .

فقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾:

فعندما حملت مريم بعيسى ﷺ انتبذت به مكاناً مرتفعاً بعيداً عن الأهل، واستقرت عليه، وتوفر لها فيه ما يعينها على الحياة. قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً. فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾(١٣٠).

ففى قوله تعالى "وآويناهما إلى ربوة" كناية عن إيواء الله - عزوجل- لعيسى وأمه فى مكان طيب ينضر فيه النبت، ويسيل فيه الماء، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

أما قوله: "ذات قرار ومعين".

فالقرار: المكان الذى يستقر فيه حيث تتوافر أسباب الحياة والاطمئنان.

والمعين: الماء الظاهر الجارى، فعيل من معه الماء إذا جرى، أو من "الماعون" وهو المنفعة لأنه نفاع .

أو: اسم مفعول من عانه إذا أدركه بعينه، لأنه لظهوره مدرك بالعيون. وكلها كناية عن طيب هذه الربوة .

٨- جوانب من وصية الله- عز وجل- لجميع الرسل

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{٥٣} فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ{٥٤} أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ{٥٥} نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ{٥٦}﴾(١٣١).

في ظلال الآيات:

وبعد أن نقلت السورة صوراً تاريخية من المجتمعات المادية التى أشركت بالله، وأنكرت البعث واليوم الآخر: من عهد نوح... إلى عهد عيسى (عليهم السلام): يتوجه القرآن بالخطاب إلى أمة الرسل جميعاً كأنهم مجتمعون فى صعيد واحد، ليقرر ثلاثة أمور التزم بها هؤلاء الرسل، وتعبر عن علاقة بعضهم ببعض:

الأمر الأول: نداء إلى جميع الرسل بالأكل الطيب، وأن يتجنبوا الخبائث فى معيشتهم، فلا يأكلون ما حرم الله أكله من: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.. ولا يأكلون من أموال الناس بالباطل. وقد التزموا جميعا بما أوصاهم به الله: قبل تكليفهم بالرسالة، وبعد التكليف بها على السواء.

والأمر الثانى: أن الله طلب إليهم العمل الصالح.. وهو العمل الذى يسير وفق خطوط الهداية الإلهية: "واعملوا صالحاً"...

والرسل جميعاً يعلمون: أنه إذا طلب منهم التزام الحلال والطيبات فى معيشتهم، والتزام العمل الصالح فى سلوكهم وفى علاقاتهم بغيرهم... فإن الله يعلم بما يعملون ولا تخفى عليه خافية فيه: "إنى بما تعملون عليم".

الأمر الثالث: أن رسالتهم رسالة واحدة، هى الدعوة إلى عبادة الله وحده، وأن دينهم واحد، هو الإسلام، وأنهم جميعاً مسلمون لله وخاضعون فى طاعته إليه، فمجموعتهم مجموعة واحدة، يعبدون رباً واحداً، هو الله تعالى، فهذه القصص التى ذكرت للرسل السابقين (عليهم السلام)، تعبر عن أمة لهم ومجموعة من

الروابط فيما بينهم، فهم جميعاً يلتفون حول الاعتراف بالوحدانية لله تبارك وتعالى فى ربوبيته وفى ألوهيته، وفى صفاته وكماله، واتقاء ما يجنبهم الشرك به.

ولكن مع كون الرسل جميعاً أصحاب رسالة واحدة، ودين واحد، وملتفين حول هدف واحد، فإن الأمر بين أتباعهم لم يبق على الوحدة فيما بينهم، وإنما حولوا الرسالة الواحدة إلى جملة من الرسالات، ومجموعة الروابط إلى شتات مفرق، والدين الواحد إلى أديان مختلفة، ومذاهب متضادة، ولذا أصبحوا أحزاباً وشيعاً، كل حزب متمسك بما اتجه به من دين الله إلى نفسه خاصة.

وهنا يوجه الله- عز وجل- إلى رسوله محمد ﷺ قوله: (فذرهم فى غمرتهم حتى حين)، اتركهم فى غفلتهم التى شغلتهم فأعمتهم عن الحق حتى يفاجئهم الموت، وهو مصيرهم المقدر المحتوم، وعند ذلك يندمون وقد انتهت دنياهم دنيا الأعمال وصاروا فى مرحلة جديدة فيها الحساب والعقاب على ما اقترفوا من الذنوب والآثام.

وهنا يتهكم الله بالوثنيين الماديين بمكة، بعد توضيح نعمة الله على الإنسان فى تطوره فى خلقه، وبعد ذكر المجتمعات المادية وما انتهت إليه من التحطم والفناء بسبب كفرهم فقال: (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون).

فإنهم ظنوا أن الإملاء لهم بعض الوقت وأنه- عز وجل- لم يعجل لهم العذاب كما عجل لقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وغيرهم بل أمدهم بالأموال، وأنعم عليهم بالبنين، ظنوا ذلك مسارعة لهم فى الخيرات، وإيثاراً لهم بالعطاء، ولم يعلموا أنها الفتنة والابتلاء، إنهم لا يشعرون بما وراء ذلك من العذاب وسوء النكال.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(١٣٢).

وعطاء الله للإنسان لا يرتبط بإيمانه، أو بكفره، فهو يعطى كلاً من المؤمن والكافر على السواء، لأن العطاء لا يقصد منه الجزاء قال تعالى:﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(١٣٣).

فعطاء الله ليس محظوراً على أحد، ولذا: لا صلة بين النعم من مال وأولاد من جهة، وبين رضا الله أو عدم رضائه من جهة ثانية، على من أنعم عليهم أو على من حرمهم منها".

التحليل البلاغي:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

والجمال البلاغى: هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة، فهذا الأسلوب إيجاز قصر، حيث عبر عن تلك الأوامر المتعددة بالرسل بصيغة الجمع على وجه الإجمال بمعنى الإعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى بذلك... إلخ.

"فإن مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم آمر ناه أزلا، ولا يشترط فى تحقق الأمر وجود المخاطب"(١٣٤).

والأمر فى قوله "كلوا من الطيبات" أى ما حل وطاب، وأريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه التى جاءت من طريق حلال ليس فيه معصية لله.

ومن الجمال البلاغى: تقديم الأمر فى: "كلوا من الطيبات" على الأمر "واعملوا صالحاً" لسببين:

الأول: ليقع الأكل بعد قوله تعالى: (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) فكان أوفق له.

الثانى: أن الأكل الحلال معين على العمل الصالح، كما يعد العمل الصالح شكراً لله- تبارك وتعالى- على ما أنعم به على الرسل والعباد من الرزق الطيب.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم) وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم).

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك"(١٣٥).

وجملة "إنى بما تعملون عليم" بيان وتعليل للأمر السابق. والخطاب تحذير للرسل فى الظاهر والمراد اتباعهم، ولكن الخطاب للرسل لبيان علو المكانة والمنزلة.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾:

وفى قوله "إن هذه" إشارة إلى الملة والشريعة، وفيها بيان لكمال ظهور أمرها، فهى وحدة الفطرة التى فطر الناس عليها، هى وحدة الطريقة التى جاءوا بها إلى هذه الحياة، ووحدة الجوهر الذى دعت إليه الأديان، ووحدة الخالق الذى أرسل الرسل جميعا، ووحدة الاتجاه الذى ينبغى أن يتجه إليه الناس فى كل زمان ومكان "عبادة الله وتقواه".

وفى قوله: "وأنا ربكم فاتقون" هذه الجملة عطف على جملة "إن هذه" المعطوفة على ما تقدم، وهما داخلان فى حيز التعليل للعمل الصالح.

فقوله تعالى "وأنا ربكم" أى من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية.

وفى قوله تعالى "فاتقون" كالتصريح بالنتيجة.

ويكون الترتيب البلاغى كالآتى: يبدأ بالأمر للرسل والتابعين بالأكل من الطيب، ثم يكون العمل الصالح جزاء الشكر على نعمة الأكل، ثم يأتى البيان والتعليل للأمر بأن الله عليم، ثم تكون النتيجة لكل ذلك، هو توحيد الربوبية لله تعالى والخشية منه "فاتقون". وهو جمال بلاغى فى الترتيب المنطقى للأمور.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾:

يبدأ الجمال البلاغى فى الآية بالالتفات من الخطاب فيما سبق إلى الغيبة، وهذا الالتفات ينبئ بابتعادهم عن المنهج الحق، فلم يعودوا أهلاً للخطاب.

وكأنه رداً على استفهام بيانى، ماذا كان موقف أهل مكة وقد عرض عليها القرآن الكريم قصص الأمم والرسل، وأبرز فيها مواطن الاعتبار؟

فجاءت الإجابة "فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً".

وقد جاء الأمر بالتقوى وعطف عليه التقطع بالفاء: "وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا" وهذا أبلغ فى التخويف والتحذير، وأقوى فى الذم والتقبيح، والمقام يقتضى ذلك حيث جاءت الآية عقب إهلاك طوائف كثيرة، قوم نوح والأمم من بعدهم.

انقسموا فريقين: فريقاً لم يؤمن بهذه الوحدة فقطعها، وفريقاً تمسك بها، وظل مشفقاً عليها، مخافة أن يتسرب إليها ضعف أى ضعف.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾:

ويعود الخطاب إلى الرسول ﷺ فى شأن قريش الذين تقطعوا فى أمر الدين الحق.

"غمرتهم" استعارة تصريحية، حيث استعيرت الغمرة للجهالة لأن أصل الغمرة: الماء الذى يغمر القامة، وأصلها من الستر، وهنا مستعارة للجهالة.

وفى تنكير "حين" إبهام يدل على شدة التهويل والتفظيع لما سيحل بهم من عذاب. والمراد: بذلك حين قتلهم وهو يوم بدر على ما روى عن مقاتل أو موتهم على الكفر الموجب للعذاب.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾:

ما: موصولة اسم أنّ، وفى قوله: "من مال وبنين" بيان لها، أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا، ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[١٣٦] "لقد أخطأوا فى ذلك وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وأنظاراً وإملاء، ولهذا قال: (بل لا يشعرون)" وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١٣٧].

أما جملة "تسارع لهم فى الخيرات" خبر إن، والعائد على الموصول محذوف، والتقدير: نسارع لهم به [١٣٨].

وقيل إن "ما" مصدرية، والمصدر المؤول اسم إن، وخبرها "تسارع" حذفت منه إن فارتفع، والمعنى: أيحسبون أن إمدادنا لهم من مال وبنين مسارعة منا لهم فى الخيرات[١٣٩].

٩- مصير الإنسان وعدالة الجزاء

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{٥٧} وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{٥٨} وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ{٥٩} وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ{٦٠} أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ{٦١} وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ{٦٢} بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ{٦٣} حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ{٦٤} لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ{٦٥} قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ{٦٦} مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ{٦٧}﴾[١٤٠].

في ظلال الآيات:

"وهذا هو الفريق الأخر، الذى يصور اليقظة والحذر، إنه فريق المؤمنين، إيمانهم من قلوبهم، إنه الإيمان الصادق الذى وصفهم الله به فى أول السورة فى قوله تعالى (والذين هم فى صلاتهم خاشعون)، وهنا يؤتى هذا الخشوع ثماره فإذا هم خاشعون فى كل حين، لأنهم دائماً فى خشية من الله، خوف وإشفاق دائمين.

ويؤمنون إيماناً كاملاً بكتاب الله.. ويعبدونه وحده لا شريك له، ويفعلون الخير كله من صلاة وصيام وصدقة، وحسن جوار، وكرم خلق... الخ ويخافون ألا يكون عملهم هذا مقبولاً عند الله يوم يعرضون عليه، فشأنهم فى الطاعة لله والعمل الصالح على العموم وفقاً لهدايته: إنهم يسارعون فيها، ومن السابقين لأدائها.

فالفريق الأول يعيشون بسيئاتهم فى غمرة، ويظنون أنهم مقصودون بنعمة المال والولد، وهؤلاء يعيشون بطاعتهم فى اجتهاد دائم، ومع ذلك هم أكثر حرصاً على مبادرة الطاعات فسابقون الناس إليها، وغداً- يوم القيامة- يسبقون الناس إلى الجنة.

ولا يطلب من هذا الفريق الذى لا يتباطأ فى طاعة الله: فى إيمانه، وفى أدائه للعمل الصالح، سوى ما تستطيعه طاقته الذاتية، ولا نكلف نفساً إلا وسعها، فالله-

تبارك وتعالى- لا يلزم أى إنسان فى أداء طاعته ومباشرته للسير وفقاً للطريق السوى، إلا بقدر ما تسعه نفسه وتستوعبه طاقته.

ولكى تطمئن كل نفس بما عملت، وأنه لا يضيع شىء عليها من عملها، فإن الله- عز وجل- يسجل ما يعمله كل فرد فى سجل خاص، لا يسقط منه شىء إطلاقاً، ولذا فهو يمثل الحق والصدق، وعند الجزاء لا تظلم أى نفس طالما: سجل أعمالها ينطق بالحق والصدق.

وتعود السورة مرة أخرى للحديث عن الوثنيين الماديين بمكة، فتذكر: أن نفوسهم منقبضة من إيمان هذا الفريق الذى أسلم منهم، واتبع رسول الله محمد ﷺ.

فلم يكتف هؤلاء الماديون المشركون بتحدى القرآن، ومعارضة الرسول ﷺ، لم يكتفوا بموقفهم هذا، بل تضيق نفوسهم وتتأزم، لأن فريقاً قليلاً منهم يؤمن بكتاب الله، ولا يشرك بعبادة ربه أحد، ويخشى الله فى تصرفاته، ويعطى صاحب الحاجة مما أعطاه الله.

وأيضاً لهؤلاء الكفار أعمال خبيثة- دون هذه التى ارتكبوها، حريصين على فعلها، يخططون لعملها، ويقترفون إثمها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾(١٤١).

فموقفهم هو التحدى والمعارضة، ونفوسهم حاقدة وأعمالهم تقسم بالإيذاء النفسى والبدنى للمؤمنين".

ومن أجل ذلك سيجزون بالعذاب على خصومتهم للمؤمنين يوم الجزاء، وسترتفع بالشكوى أصوات الزعماء فيهم- وهم أصحاب الترف والسطوة- عندما نجازيهم، لأنهم لم يتعودوا على حياتهم الدنيوية إلا رخاء العيش ويسر الحياة.

وسيرد على شكواهم بالرفض "لا تجأروا اليوم" ثم التوكيد على أنهم لا يلقون من الله نصراً أبداً "إنكم منا لا تنصرون" وليس هناك من ينصركم أو يرد عذاب الله عنكم.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾(١٤٢).

وكان القرآن الكريم يتلى عليهم، فيعرضوا عنه، وكأنه خطر يحاذرونه، يستكبرون عن سماعه، أو يستنكفون من الاستماع إليه، ولم يكن موقفهم عندئذ إلا أن يديروا له ظهورهم وينصرفوا عنه.

ولم ينصرفوا عنه فحسب ويتركوه وشأنه، وإنما كانوا متعالين متغطرسين فى انصرافهم، كما كانوا يتندرون به ويسخرون منه فى سمرهم وحديثهم بالليل: فى فحش من القول، وبذاءة فى التعبير.

التحليل البلاغى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾:

قيل: المراد بالإشفاق: كمال الخوف، وعليه فلا تكرار فى الآية (بيد أن فى استمرار الإشفاق هنا فى الدنيا والآخرة للمؤمنين ترددا)[١٤٣].

وقد حمل الإشفاق على ما هو أثر له، وهو الدوام على الطاعة، والمعنى: والذين هم من خشية ربهم دائمون على الطاعة.

"وقال الحسن ﷺ: لقد أدركنا أقواماً كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها"[١٤٤].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾:

الباء للملابسة، والجار والمجرور متعلق بقوله "يؤمنون" والمراد بالآيات: الكونية والتنزيلية، ومعنى الإيمان بها: التصديق بمدلولها إذ لا مدح فى التصديق بوجودها، والتعبير بالمضارع دون الاسم للإشارة إلى أنه كلما وقفوا على آية آمنوا بها وصدقوا بمدلولها.

وفى قوله: (والذين هم بربهم لا يشركون) يخلصون العبادة له- عز وجل- فالمراد نفى الشرك الخفى كالرياء بالعبادة، وقد اختار بعض المحققين التعميم، أى لا يشركون به تعالى شركاً جلياً ولا خفياً ولعله الأولى[١٤٥].

وهى إشارة إلى توحيدهم الألوهية لله تبارك وتعالى، حيث يشترك معظم المشركين مع المؤمنين فى توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[١٤٦].

وقوله- عز وجل- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١٤٧].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾:

وجلة: خائفة ألا تقبل منهم أعمالهم، فهم فى طاعتهم أشد خوفاً من الله- عز وجل- من العاصين فى عصيانهم، فكل ما يقدمون من طاعات قليل فى جانب الله الذى يستشعرون عظمته وفضله فى كل ما يحيط بهم، إنهم يخافون أن يلقوا ربهم وهم مقصرون فى حقه: عبادة، وطاعة، وإخلاصاً.

روى الترمذى عن عائشة- رضى الله عنهما- قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة: (أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون فى الخيرات)[١٤٨].

وجملة: "وقلوبهم وجلة" فى موضع الحال من الضمير الأول... وقوله: "إنهم إلى ربهم راجعون" تعليل لوجل قلوبهم بتقدير اللام التعليلية أو من الابتدائية التى يتعدى بها الوجل. وقيل المعنى: أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب، وعلم أن المجازى والمحاسب هو الله الذى لا يخفى عليه خافية، لم يخل من وجل.

﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾:

فهذا الفريق الذى وصف بهذه الصفات كلها: من الحذر والخشية من الله فى تصرفاته، ومن الإيمان بكتابه، ومن عبادته وحده، ومن الرجال فى حسن لقاء الله إن أعطى غيره.

هذا الفريق لا يتباطأ فى طاعة الله، وفى أداء العمل الصالح، ويكون فى المقدمة فى إنجاز هذا وذاك، فيسبقون الناس إليها، وغدا- يوم القيامة- يسبقون الناس إلى الجنة.

وفى إيثار التعبير بالمضارع دون الاسم فى قوله تعالى: "بآيات ربهم يؤمنون" وقوله: "بربهم لا يشركون"، وقوله: "يؤتون ما آتوا" وقوله: "يسارعون فى الخيرات" دلالة على التجدد والحدوث، فهم كلما وقفوا على آية آمنوا بها وأحدثوا تصديقاً بمدلولها، وكلما عن لهم وبدا لون من ألوان الخير فهم يؤتونه ويسارعون إليه.

وفى قوله تعالى "يسارعون" بدلاً من "يسرعون" لأن المفاعلة تكون من اثنين فتقتضى حث النفس على السبق.

أما فى إيثار التعبير بالإسم فى قوله تعالى: "من خشية ربهم مشفقون"، وقوله: "أنهم إلى ربهم راجعون" وقوله: "وهم لها سابقون" دلالة على الثبوت والدوام والاستمرار.

والتعبير بالماضى مكان المضارع فى قوله: "آتوا" للدلالة على تحقق الوقوع إذ الأصل: والذين يؤتون ما يؤتون، فقيل: "ما آتوا" إشارة إلى تحقق الإتيان.

وتكرار "رب" وإضافة الضمير إليهم "ربهم"، مما يشعر بتوحيد الربوبية، والذى يؤدى إلى توحيد الألوهية لله- تبارك وتعالى- كالآتى: ما دام الله- تبارك وتعالى- هو الخالق والرازق والمدبر والمربى... إلخ إذن هو المستحق وحده للعبادة "توحيد ألوهية".

وفى تكرار الموصول "الذين" يوضح أن كل صفة لها من المحاسن والمزايا، ما يدل على كمال هذه المحاسن وتمام تلك الفضائل.

أما فى قوله: "أولئك يسارعون" استئناف مسوق لبيان من له المسارعة فى الخيرات، هم دون غيرهم من الكفرة والظالمين.

وإيثار التعبير بكلمة "فى" دون كلمة "إلى" للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها.

﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾:

ثلاث قضايا هامة تطرحها هذه الآية الكريمة:

أولا: **لا تكليف فوق الطاقة:**

فما يصنعه المؤمنون من المسارعة إلى الخيرات دافع من الإيمان، الذى غمر القلوب فى حدود طاقة المؤمن حين يغمر الإيمان قلبه.

ثانيا: كل شىء مدون فى سجل ينطق بالحق:

تقرير للحساب الدقيق الذى لا يبخس الناس شيئاً قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(١٤٩).

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(١٥٠).

هذا تهديد للعصاة، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم. وفيها استعارة مكنية، حيث شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه "ينطق".

ثالثا: العدالة الممثلة فى الجزاء على أساس ما دون فى الكتاب، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة "وهم لا يظلمون".

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(١٥١).

وعند الجزاء لا تظلم أى نفس، طالما: سجل أعمالها ينطق بالحق والصدق.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾:

والتعبير فى قوله تعالى (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بغمرة الماء الذى يغمر الإنسان بجامع الغلبة والاستهلاك.

أما تنكير الأعمال فى قوله (ولهم أعمال من دون ذلك) يدل على كثرتها وتنوعها أى: ولهم أعمال سيئة كثيرة متنوعة.

وفى إيثار التعبير بالاسم فى قوله: "هم لها عاملون"، وذلك دون الفعل للدلالة على الاستمرار والدوام، وفى تقديمه المفعول "الضمير" ودخلت عليه لام الجر للدلالة على التوكيد وتقوية الحكم، إذ الأصل "هم عاملوها".

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾:

الجؤار: الصراخ باستغاثة.

وتحديد المترفين بالعذاب دون غيرهم لأنهم الذين استكبروا وقادوا حملة التكذيب التى قوبل بها الرسل- عليهم السلام- وفى قوله تعالى "إذا هم يجأرون" مجاز مرسل علاقته السببية حيث الجؤار: الجزع، ولما كان الجزع هو سبب الصراخ والاستغاثة فعبر بالمسبب، وأريد به السبب.

﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾:

فعذابنا واقع لا محالة، وليس هناك من ينصركم أو يرد عذاب الله عنكم قال تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾(١٥٢).

وفى قوله: "لا تجأروا" على تقدير القول أى قلنا لهم ذلك، والكلام استئناف مسوق لبيان إقناطهم وعدم انتفاعهم بجؤارهم وقطع أطماعهم. والمراد باليوم: الوقت الحاضر الذى اعتراهم فيه ما اعتراهم"(١٥٣).

ومن الناس من جوز كون القول المقدر جواب "إذا" الشرطية وحينئذ يكون "إذا هم يجأرون" قيداً للشرط أو بدلاً من إذا الأولى. وكأنه قد انبعث من الجملة الأولى سؤال مفاده: وهل ينفعهم ذلك الجؤار، فأجيب: لن ينفعهم، بل يقال لهم: "لا تجأروا اليوم". وقوله: "إنكم منا لا تنصرون" تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم نفعه، ومن ابتدائية أى لا يلحقكم منا نصره تنجيكم مما أنتم فيه.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾:

وفى قوله: "قد كانت آياتى تتلى عليكم" وذلك للاستئناف البيانى، حيث وقع تعليلاً لعدم النصرة لهم، حيث استمرارهم فى الكفر والضلال.

وفى قوله: "فكنتم على أعقابكم تنكصون" استعارة تمثيلية تصوير لإعراضهم عن القرآن، وكأنه خطر يحاذرونه، وفى هذه الصورة بيان لضلالهم وللعاقبة السيئة لهذا الضلال؛ فهم عندما يستكبرون عن سماع القرآن، أو يستنكفون من الاستماع إليه، بمثابة من يرجع القهقرى، وهو أقبح مشية لأن الراجع لا يشاهد

ما وراءه، ولا يستطيع أن يتوقى ما قد يصادفه من أخطار، وفى الوقت نفسه يترك طريقاً معلوماً يشاهده بعينه، ويمكن أن يسير فيه على هدى، إلى طريق آخر لا يعلم من أمره شيئاً.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾:

مستكبرين: متكبرين على المؤمنين.

والضمير فى "به" عائد على البيت الحرام، سامرا: تسمرون بذكر القرآن فتسهرون ليلاً بالطعن فيه وتكذيبه.

تهجرون: من الهجر وهو الهذيان.

وكان كفار مكة يستكبرون، ويستنكفون أن يؤمنوا بالقرآن، ثم يسهرون ويسمرون على الطعن فى القرآن الكريم، والإساءة إلى الرسول العظيم ﷺ، فيقولون: شاعر، أو ساحر أو مجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر أو أساطير الأولين... الخ.

وفى قوله تعالى: "مستكبرين به" وضع للضمير موضع الظاهر؛ إذ الضمير فى "به" يرجع إلى البيت الحرام، ولم يتقدم ذكره والذى سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به. وافتخارهم بولايته والقيام عليه.

١٠- بيان موقف الوثنيين الماديين من القرآن

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِينَ{٦٨} أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ{٦٩} أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ{٧٠} وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ{٧١} أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{٧٢} وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٧٣} وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ{٧٤} وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{٧٥} وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ{٧٦} حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ{٧٧}﴾[١٥٤].

في ظلال الآيات:

وتستمر الآيات في الإشارة على موقف الوثنيين الماديين من القرآن الكريم، فبعد أن انصرفوا عنه، وكانوا يتندرون به ويسخرون منه في سمرهم وحديثهم بالليل: في فحش من القول، وبذاءة في التعبير، حيث لم يكن موقفهم من القرآن موقفاً موضوعياً: فيتدبرون ويعون ما فيه أولاً، قبل رفضه أو قبوله، وإنما كان موقفهم منه قائماً على التحزب وتبييت الرأى مقدماً، وهو الكفر به، لأن المادية التي يقعون تحت تأثيرها تعمى قلوبهم، وتسئ إلى منطقهم، فطالما لم يأت القرآن مؤيداً لاعتقادهم، وبالتالى مؤيداً لزعامتهم، فلا تقبله نفوسهم، ولا يستسيغه منطقهم، كمنطق الأطفال: يرفضون ما لا يوافق مطلوبهم، وإن كان أجود في النوع، وأدخل في الصلاحية.

وما جاء به الرسول محمد ﷺ هو بعينه ما جاء إلى آبائهم الأولين على عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) اللذين جاءا بالدعوة إلى توحيد الألوهية لله تعالى، وطرح الشرك بالله جانباً: قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً

وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١٠٥).

والآيات تسد على كفار مكة ما يمكن أن يتخذوه ذريعة للكفر بهذه الشريعة الغراء، فيطرح مجموعة تساؤلات أولها:"أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون" هل ذلك هو سر إعراضهم عن رسالته؟ كلا إنهم يعرفونه حق المعرفة، ويعلمون أنه الصادق الأمين، ويعلمون عن شخصه ونسبه الكثير.

سؤال آخر "أم يقولون به جنة" ولذلك لم يؤمنوا به؟

كلا فهم يعلمون أنه (عليه الصلاة والسلام)، أوجههم عقلاً وأثقبهم فكراً، ولكنه العناد، والحسد من السفهاء.

إذن لماذا الإعراض؟ فتجيب الآيات "بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون".

إذن السبب لأنهم يكرهون الحق، ولما كانت رسالة الرسول محمد ﷺ حق، فمالت أهواءهم إلى كره هذا الحق.

وفى هذا تكريم للحق، وتكريم للرسول الذى جاء به، وتوبيخ لهؤلاء الكفار الذين كرهوا الحق وتمادوا فى كراهيته، حتى كرهوا الرسول الذى جاء به، وانكروا ما عرفوا عنه من الصفات النبيلة، وهذه غاية المكابرة وأقصر درجات العناد.

فالحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السموات والأرض ويستقيم هذا الكون بما فيه ومن فيه، ولو اتبع هذا الحق أهواءهم. فماذا يحدث؟ سيختل نظام الكون، وتفسد السموات والأرض، وتضطرب أحوال الناس، لأن الحق واحد ثابت، والأهواء متعددة متعارضة متقلبة، فالحق الواحد يدبر الكون كله، إذا كان هذا الحق عالماً بالكون وتدبيره وصلاحه، والأهواء تفسده لا سيما إذا كانت موسمة بالنقص والعجز والطمع، وتبدل العواطف والانفعال، إنها- من غير شك- ستقود الكون إلى الفساد.

وقد صور القرآن الكريم نماذج من هذا الفساد المرتقب لو اتبع الحق أهواء الكفار: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١٥٦).

وكان رد القرآن عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾(١٥٧).

ولو ملك أصحاب الهوى خزائن رحمة الله، لصنعوا كما أخبر القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾(١٥٨).

ولو كان لهم الملك أو نصيب منه، لظهر بخلهم الشديد، وفى ذلك يقول- عز وجل- ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾(١٥٩).

كما أن اتباع الهوى فى السلوك والمعاملة هو اتباع لخطوات الشيطان. ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾(١٦٠).

والغريب أن تعرض أمة محمد ﷺ عن هذا الحق وتتنكر له، إنها بذلك تهدم مجدها بيدها، فهذا القرآن فيه مجد لأمة محمد، فهو الذى أشاد بها فى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾(١٦٢).

ولولا القرآن ما كان لهذه الأمة ذكر فى العالمين، ولا تزال هذه الأمة ضائعة لا مكانة لها، ولا مكان فى العالم، حتى تعود إلى دينها وكتابها فيكون لها ذكر فى العالمين.

وتعود الآيات مرة ثانية إلى مناقشة شبهات الكفار فى معارضة الرسول محمد ﷺ فى قوله تعالى "أم تسألهم خرجاً" فهم يفرون مما تسألهم من أجر على هدايتهم إلى الحق، كلا إنك لا تطلب أجراً فما عند الله خير مما عندهم، فإن كان ما عندهم خرج، فإن ما عند الله خراج، فالرسول ليس فى حاجة إليهم، بل هم المحتاجون إلى الله الرازق ذى القوة المتين.

فإن هم استجابوا لك وساروا على النهج الذى تدعوهم إليه أمنوا الزلل والعثار، وظفروا بعز الدنيا وفلاح الآخرة.

ثم تشير الآيات على أن الإيمان بالآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه، وأن الله- عز وجل- لم يجعل نهاية الخلق فى الموت، بل هو مرحلة، بعدها البعث والآخرة، والإيمان بالبعث والآخرة يصلح أمر الناس فى العاجلة والأجلة؛ فمن آمن بهما اهتدى إلى الصراط المستقيم فى الدنيا، فآمن بالرسول وصدق بالرسالة وهداه الله إلى الصراط المستقيم فى الآخرة، ومن كفر بهما أضله الله طريق الجنة، فعدل عنه، فأرداه فى نار جهنم وبئس المصير.

والكافر بالله وبرسوله وباليوم الآخر لا يفيده الابتلاء بالنعم، فإن أصابته نعمة غرق فيها واشتغل بها فأعمته عن الله وتمادى فى طغيانه، وظن أن ما ناله من نعمة خير من حقه أن يناله ويتمتع بهن فلم يذكر الخالق، ولم يتوجه بشكره للمنعم المتفضل، وأول واجبات النعمة أن يشكر الإنسان واهبها، وهو الله- عز وجل- ولكن هذا الكافر يتلقى نعمة الله بالإمعان فى الكفر فلا يزداد إلا تخبطاً فى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(١٦٣).

هؤلاء الكفار يظنون إنهم يملكون الحياة يتصرفون فيها كما يشاءون، فيتمادون فى غيهم، لا يفكرون فى موت وبعث وحساب وعقاب، فإذا كان يوم القيامة وفوجئوا بالعذاب تمنوا العودة إلى الدنيا، ليؤمنوا بربهم ويستغفروا من ذنوبهم... وصدق الله "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه".

ولقد ابتلاهم الله بالعذاب، فأخذهم بالمصائب الشداد، فما ردهم ذلك عما كانوا عليه من الكفر والمخالفة، والمطلوب من العبد الصالح أن يستكين لربه ويتضرع له، ويرجع إليه ليرفع ضره، وهذا التضرع وتلك الاستكانة ترقق القلب،

وتوقظ النفس. ولقد ابتلى نبى الله أيوب فصبر واستكان وتضرع فظفر ورضى الله عنه:

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾(١٦٤).

وابتلى يونس عليه السلام بالهم والغم إذ ذهب مغاضباً، فتاب وأناب واعترف بذنبه، فكشف الله عنه ففرّج ضيقه ونجاه من كربه.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٦٥).

أما هؤلاء الكفار فما استكانوا وما تضرعوا وظلوا فى غوايتهم. لأنهم قد قست قلوبهم وغفلوا عن الله، وكذبوا برسوله محمد ﷺ، وسيظلون كذلك حتى يفاجئهم عذاب الآخرة، فيسقط فى أيديهم، ويحتاروا ويئسوا من النجاة.

قال تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون).

التحليل البلاغى:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِينَ﴾:

القول: القرآن الكريم، وفيه الجمال، والجلال، والحكمة، وموافقة الفطرة.

الهمزة: لإنكار الواقع واستقباحه، ويدبروا أصله: يتدبروا فقلبت التاء دالاً، وأدغمت الدال فى الدال.

والاستفهام الغرض البلاغى منه التوبيخ، لأن مجئ الكتب السابقة من جهة الله تعالى، إلى الرسل (عليهم السلام)، لينذروا بها الناس، سنة قديمة، لا يكاد يتسنى إنكارها، وأن مجئ القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه؟

و"أم" فى قوله: "أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين"، منقطعة وما فيها من معنى "بل" للإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بـآخر، والهمـزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أى بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال.

والمراد بآبائهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا بـه وبكتبـه ورسـله وأطاعوه، فالمراد بآبائهم الأولين، المؤمنين بالحنيفية السمحة والتى جـاء بهـا إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) ومنهم عدنان وقحطان أجداد هؤلاء المنكرين، وكأن وصفهم بالأولين على هذا لإخراج الأقربين.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾:

إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر.

الهمزة: لإنكار الوقوع أيضاً أى بل ألم يعرفوه (عليه الصلاة والـسلام) بالأمانـة والصدق وحسن الأخلاق ويعلمون عن شخصه ونسبه الكثير.

وفى قوله: "فهم له منكرون" الفاء سببية لتسبيب الإنكار عن عدم المعرفة، فالجملة داخلة فى حيز الإنكار ومآل المعنى، هم عرفوه بالكمال اللائق بالأنبيـاء (عليهم السلام) فكيف ينكرونه.

واللام للتقوية، وتقديم المعمول للتخصيص أو الفاصلة، والكلام على تقـدير مضاف أى منكرون لدعواه أو رسالته (عليه الصلاة والسلام).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾:

وهنا انتقال من توبيخ إلى آخر، وقد روعى فى هذه التوبيخات الأربع التـى اثنان منها متعلقان بالقرآن، والباقيان بالرسول (عليه الصلاة والسلام)، الترقـى من الأدنى إلى الأعلى كما بينه "شيخ الإسلام"[١٦٦].

والهمزة لإنكار الواقع كالأولى أى بل أيقولون به جنة، أى جنون مع أنه ﷺ أرجح الناس عقلاً وأثقبهم رأياً وأوفرهم رزانه، وهم يعلمون ذلك. ما كان ينبغى منهم هذا القول؟

وفى قوله تعالى: (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) حيث أظهر فى مقام الإضماء إذ الأصل: وأكثرهم له، وذلك للمبالغة فى ذمهم وتوبيخهم وللدلالة على كراهيتهم لكل حق، أى: وأكثرهم للحق، أى حق كان لا هذا الحق فقط، وهذا أظهر فى ذمهم وتوبيخهم، فـ "ال" فى الحق الأول للعهد، وفى الثانى للاستغراق أو الجنس، والتعبير بالاسم "كارهون" دون الفعل، للدلالة على ثبات الكراهية ودوام ملازمتها لهم.

وفيه تنبيه إلى عظم منزلة النبى محمد ﷺ وسمو مكانته، وكونه بمثابة عظيمة فى قوله: "بل جاءهم بالحق" فهو شهادة من الله لنبيه ﷺ.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾:

الحق: هو الذى جاء به النبى محمد ﷺ، فقد جعل الاتباع حقيقياً والإسناد مجازياً، والمعنى: لو اتبع النبى ﷺ أهواءهم فجاءهم بالشرك بدل ما أرسل به. وهو من المجاز العقلى، علاقته إسناد المبنى للفاعل إلى مفعوله.

وفى قوله تعالى: (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن). وكأنه إجابة على استفهام بيانى ماذا يحدث لو اتبع الحق أهواءهم؟

فتكون الإجابة "لفسدت" أى: لخرب الله تعالى العالم وقامت القيامة لفرط غضبه سبحانه، وهو فرض محال من تبديله ﷺ ما أرسل به من عنده.

وجوز أن يكون المعنى: لو وافق الحق مطلقاً أهواءهم لخرجت السموات والأرض عن الصلاح والانتظام بالكلية، والكلام استطراد لتعظيم شأن الحق مطلقاً بأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به. وقيل المراد بالحق هو الله.

فى قوله: (بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون).

وفى إسناده إلى الله تعالى بعنوان الذكر، ما لا يخفى من الجمال البلاغى والمزايا التى اقتضاها المقام، فإن التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به، هو الذى يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون فى شأن النبى محمد ﷺ وأما التشريف الكامن وراء الذكر فإنما يليق به تعالى.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

الخرج: وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجعله، وقيل الخرج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه.

والآيات تعود إلى مناقشة شبهات الكافرين فى معارضة الرسول ﷺ ويعنى: أم تسألهم على هدايتكم لهم قليلاً من عطاء الخلق، فما عند الله خيراً مما عندهم، فإذا كان ما عندهم خرج (تخصيص يدل على القلة) فإن ما عند الله خراج (عام يدل على الكثرة) والجمال البلاغى فى الفرق بينهما. حيث جعل القلة لهم والكثرة لله تعالى، والخطاب للنبى ﷺ أنت لست فى حاجة إليهم، بل هم المحتاجون إلى الله الرازق ذى القوة المتين.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(١٦٧).

وهو تعليل لنفى السؤال المستفاد من الإنكار أى: لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير من ذلك لسعته ودوامه.

وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ ما لا يخفى من الجمال البلاغى.

فى قوله: "وهو خير الرازقين" تأكيد لخيرية خراجه سبحانه وتعالى، فإن من كان خير الرازقين يكون رزقه خيراً من رزق غيره.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾:

وقد ألزمهم عز وجل الحجة، وأزاح عللهم فى هذه الآيات بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم. ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم. ووراء هذه الاستعارة، وتأكيد الخبر بأن واللام "إنك لتدعوهم" ما يدحض إنكار الكفرة ويدفع جحودهم، وكذا التوكيد فى قوله: "وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون" فهم ينكرون أنهم ناكبون عن الصراط، والتأكيد يدفع هذا الإنكار ويبرز ضلالهم وغوايتهم.

وقد عبر بالظاهر "عن الصراط" فى موضع المضمر، إذ الأصل أن يقال: "عنه لناكبون" لتقدم ذكر الصراط، وذلك لإبراز كمال ضلالهم وشدة غوايتهم.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

للجوا: لتمادوا، فى طغيانهم: إفراطهم فى الكفر والاستكبار.

يعمهون: عامهين مترددين فى الضلال.

وقيل: "هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر، أعنى الجزع عليهم وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل أى: ولو رحمناهم وكشفنا ضرهم بإرجاع مترفيهم إليه لتمادوا وأفرطوا فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول ﷺ والمؤمنين"(١٦٨).

هؤلاء الماديون لو كانوا فى أزمة وشدة، ثم يسر الله لهم الأمر: فكشف عنهم ما هم فيه، وحول أزمتهم إلى فرج وشدتهم إلى رخاء، لزادوا طغياناً وعنجهية، وتصلبوا فى إصرارهم على الكفر، وعلى العناد والتحدى.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾:

استكان: استفعل من الكون: أى انتقل من كون إلى كون. والجمال البلاغى فى التعبير عن التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفى لا نفى الدوام، أى ليس من عاداتهم التضرع إليه أصلاً، وقيل "فإن قلت هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكينون؟ قلت: لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد"(١٦٩).

"والمشهور أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر"(١٧٠).

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾:

ومهما بلغت الأزمة من قسوتها، ومهما بلغت حيرتهم من العمق والشمول بسبب ما أصيبوا به، فإنهم باقون على ما هم فيه، من إنكار لله واليوم الآخر.

وقد وصف العذاب بالشدة للتهويل والتفظيع، وعبر بالحرف "على" بدل "اللام" ليؤكد قوة الأخذ فى العذاب، ولذا استخدم "فتحنا عليهم" فيفتح على الكفرة تحقيراً وإهانة وإذلالاً.

"مبلسون" متحيرون آيسون من كل خير أو ذو حزن من شدة البأس.

قال تعالى: (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون).

"وقيل: هذا الباب استيلاء النبى ﷺ والمؤمنون عليهم يوم الفتح، وقد أيسوا فى ذلك اليوم من كل ما كانوا يتوهمونه من الخير"(١٧١).

١١- الإقرار بالربوبية لله تبارك وتعالى

﴿{٧٧} وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{٧٨} وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{٧٩} وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ{٨٠} بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ{٨١} قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{٨٢} لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{٨٣} قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨٤} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ{٨٥} قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{٨٦} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ{٨٧} قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨٨} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ{٨٩} بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{٩٠} مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{٩١} عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{٩٢}﴾[١٧٢]:

في ظلال الآيات:

وتنتقل الآيات إلى ذكر نعم الله تبارك وتعالى، وهى النعم التى تستوجب الشكر، وهى النوافذ التى يطل بها الإنسان على ما فى الكون فيعتبر بآيات الله: ما يسمع منها، وما يبصر، وبما يفهم منها الإنسان ويشعر، ولكن الكافرين لا يزالون على غيهم فما أقل شكرهم لله على ما أنعم عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٧٣].

ولو تدبر الإنسان خلقه، وما زود به من الحواس والجوارح وما وهبه من الطاقات والمدارك لوحد الله، وعلم أنه القادر على الإبداع، وفكر فى السمع وكيف يلتقط الصوت؟ والبصر وكيف يلتقط الضوء؟ والفؤاد وكيف يدرك؟ بحيث تتلاءم طبيعة السمع والبصر والقلب أو العقل مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان.

وتشير الآيات إلى نعم الله على الإنسان حيث خلقه فى الأرض، وكثر من نسله، وإليه يحشر الإنسان يوم القيامة حيث يجمع الله جميع البشر بعد تفرقهم.

فقد خلق الله الإنسان فاستخلفه فى الأرض وأعطاه السمع والأبصار والأفئدة: أى أعطاه الطاقة على العمل.

وجعل الله اختلاف الليل والنهار: بالزيادة والنقص، والنور والظلمة، وتكررهما يوماً بعد ليلة، وليلة بعد يوم، واختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى.

كل هذا لله وحده دون سواه، فمن قدر على ذلك فمنح ومنع وأعطى وأخذ، وأسعد وأشقى يقدر على الإحياء والإماتة فهما كاختلاف الليل والنهار "أفلا تعقلون؟".

وجاء الحث على الشكر- الذى أهمله الناس- بعد الإنعام بالأسماع والأبصار والأفئدة، وجاءت الدعوة إلى النظر والتعقل وقد غفل عنه الخلق- بعد الإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار لنحيى القلوب بالشكر، ونوقظ القلوب بالفكر، وتتم لنا نعمة الكمال فى الوجدان والفكر ونبض القلوب ومسار العقول.

وبعد هذا الحشد من أدلة الخلق والتدبر، والقدرة على البعث والنشور، يأتى مشركو العرب وقد وهبهم الله الطاقة على النظر بالسمع والأبصار والأفئدة وهيأ لهم مجالات الآيات وجلاها فى أنفسهم وفى الكون من حولهم- بعد هذا كله لم يزدد هؤلاء المنكرون إلا إنكاراً وسخرية بأمر البعث فأخذوا يرددون ما قال آباؤهم وأجدادهم: أنبعث بعد موت يتركنا تراباً ورفاتاً، لقد وعدنا بهذا كما وعد آباؤنا من قبلنا ولم يتحقق لآبائنا ما وعدوا به فلن يتحقق لنا.

وقد أخبر الله- عز وجل- عنهم ورد عليهم فى أكثر من موضوع فى كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(١٧٤).

ثم تنتقل الآيات إلى حوار يجريه الله- عز وجل- بين الرسول والكفار، حول ما ينكرون من وحدانية الله، وقدرته على إعادة الحياة بعد الموت ليكون البعث

والجزاء العادل، وحول ما يزعمه هؤلاء الكفار من اتخاذ الولد، ووجود الشريك- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وقد ألزمهم بالحجة، وأفحمهم بالدليل فبرهن على أن الرسول ﷺ قد جاءهم بالحق، ولكن أكثرهم للحق كارهون، فاضطرب منطقهم، وفسدت عقولهم.

والحوار عبارة عن مجموعة تساؤلات للكفار، تكون إجابتهم عليها الشهادة لله تعالى:

أ) لمن الأرض ومن فيها؟ "سيقولون لله"

ب) من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ "سيقولون لله"

ج) من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟ "سيقولون لله"

قل فأنى تسخرون؟ أى فكيف تتخبطون كمن أصابه سحر، فذهبت عقولكم فعبدتم غير الله مع اعترافكم وعلمكم بسيطرته وسلطانه على الوجود كله، فكيف تعبدون غيره إنكم قوم مسحورون؟؟

هذا رد على الكفار وقد نسبوا الولد إلى الله فقالوا: الملائكة بنات الله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾(١٧٥).

وزعموا له البنين والبنات ﴿وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١٧٦).

فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾(١٧٧).

فلو تعددت الآلهة ما انتظم الوجود، ولم يكن له هذا النظام الواحد المتسق الذى لا يكون إلا للإله الواحد الذى ليس له ولد ولا شريك ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾(١٧٨).

فلو تعددت الآلهة لذهب كل إله بما خلق واستقل به، ولم يكن للوجود هذا الإحكام والإبداع والوحدة، أو لعلا بعضهم على بعض بغلبته وقهره وتصريفه الخاص.

"سبحان الله عما يصفون" تنزه الله عز وجل عما يزعمه هؤلاء له فى دعواهم الولد أو الشريك، "عالم الغيب والشهادة" فهو العليم بكل شىء غاب أو حضر، فلا خالق إلا هو ألا له الخلق والأمر "فتعالى عما يشركون" علوا كبيراً.

التحليل البلاغى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾:

عرفهم رب العزة تبارك وتعالى كثرة نعمه وكمال قدرته، فذكر منها: أنه جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم التى يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

والجمال البلاغى فى تقديم السمع أولا: لكثرة فوائدة، ثانيا: لأنه الحاسة التى تعمل كل الوقت فى حالتى اليقظة والنوم. كما أفرد السمع لأنه مصدر فى الأصل، وقيل: أفرد لأنه يدرك به نوع واحد من المدركات وهو الأصوات.

والجمال الآخر فى إتيان البصر بعد السمع، فقد عرف أن الطفل حديث الولادة يدرك السمع أولا ثم يبصر بعد ذلك، كما أنه جمع البصر لأنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وغيرها.

كما جمع الفؤاد أيضاً لكثرة المدركات به، حيث يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات.

ويختم كل هذا الجمال بالترتيب الربانى، فالسمع مقدم على البصر والسمع والبصر مقدمان فى الإدراك، إذ بهما تدرك الأدلة الحسية التى تسمع وتشاهد، ثم يعى القلب ويدرك الأمور العقلية.

وفى قوله تعالى: (قليلاً ما تشكرون) تجد أن الصفة جاءت نكره، وحذف موصوفها للإشارة إلى قلة الشكر، وزيدت "ما" لتأكيد تلك القلة.

"والقلة على ظاهرها بناء على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين، وجوز أن تكون بمعنى النفى بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات"(١٧٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

ذرأكم فى الأرض: خلقكم وبثكم فيها بالتناسل.

تحشرون: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

وقدم الجار والمجرور فى قوله (إليه تحشرون) للدلالة على: تحشرون إليه خاصة لا إلى غيره.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾:

الله يحيى الخلق بالإنشاء، ويميتهم بالإفناء، وليس إلا الله يملك الحياة والموت.

وفى قوله: (وله اختلاف الليل والنهار) أى: وله سبحانه وتعالى خاصة اختلاف الليل والنهار فهو المؤثر فى اختلافهما دون سواه.

ومن الجمال البلاغى: تكرار الاسم الموصول والضمير العائد إلى الله عز وجل (وهو الذى) فى الآيات الثلاث لزيادة التنبيه إلى تلك النعم التى امتن الله تبارك وتعالى بها على عباده.

ولزيادة توبيخ وتبكيت الكفرة الذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا الهداية على الرغم من تعدد نعم الله عليهم.

كل هذا لله وحده دون سواه، فمن قدر على ذلك فمنح ومنع وأعطى وأخذ، وأسعد وأشقى يقدر على الإحياء والإماتة فهما كاختلاف الليل والنهار.

وفى قوله تعالى: (أفلا تعقلون) تأكيد للتوبيخ السابق، أى: أفلا تدركوا قدرته على الخلق والتدبير، وتصريف الكون والحياة؟

كما أن هناك جمال بلاغى فى الطباق بين "يحيى ويميت" وبين "الليل والنهار" وهو لإبراز قدرة الله عز وجل.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ. قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾:

"بل قالوا" عطف على مضمر يقتضيه المقام أى فلم يعقلوا بل قالوا "مثل ما قال الأولون" أى آباؤهم ومن دان بدينهم من الكفرة المنكرين للبعث، والسؤال ماذا قالوا؟ استفهام بيانى وتأتى الآيات لتفسير هذا الإبهام وتفصيل لما فيه من الإجمال (قالوا أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أ إنا لمبعوثون).

ولاحظ ما ينبئ به طى البحث من السؤال الأول: "أ إذا متنا" وإبرازه فى الثانى "أ إنا لمبعوثون" من شدة إنكار هؤلاء الكفرة للبعث بعد الموت. وكأنهم يأبون النطق به خبراً "تبعث" ولو منفياً منكراً، ويريدونه سؤالاً مثاراً "أ إنا لمبعوثون"؟

وفى قوله: "بل قالوا" التفات من الخطاب فى تلك الآيات إلى الغيبة، وهذا التحول إلى الغيبة يفيد إبعادهم عن الله وتخلى الله عز وجل عنهم.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾:

وساقوا بإنكارهم الحياة الأخروية... إنكار من سبقوهم من الكفرة الماديين. من آبائهم وأجدادهم فى هذا الشأن".

وجاء تعبيرهم عن هذا الإنكار مثل ما عبر به أولئكم السابقون.

واستدلوا على عدم وقوعه بأن آباءهم الأولين وعدوا بالجزاء على إنكار البعث مثل ما وعدوا هم.

ومع ذلك لم يتحقق ما وعدوا به هم وآباؤهم من قبل.

وفى قوله: "من قبل" متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى المعطوف عليه، والمعطوف على ما هو الظاهر، وصح ذلك بالنسبة إليهم لأن الأنبياء المخبرين

بالبعث كانوا يخبرون به بالنسبة إلى جميع من يموت، "ويجوز أن يكون متعلقاً به من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم أى ووعدوا آباؤنا من قبل. أو بمحذوف وقع حالاً من آياتنا أى كائنين من قبل"(١٨٠).

وفى قوله: "إن هذا إلا أساطير الأولين؟"

إن هذا أى ما هذا.

أساطير: سطر، يجمع جمع قله على أسطار، ويجمع أسطار جمع كثره على أساطير: وهى ما كتبه السالفون مما لا حقيقة له، فهم ينكرون البعث ويسخرون من الرسول، ويزعمون إنه يردد خرافات السابقين.

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾:

يأمر رب العزة تبارك وتعالى رسول الله ﷺ أن يجرى حواراً مع مشركى مكة، وهو حوار يكشف ما فى نفوس هؤلاء المعاندين المكابرين، فهم ينكرون البعث وينسون أن الوجود كله لله، وداخل فى دائرة خلقه وقدرته، وهم لا ينكرون ذلك فى إجابتهم لأنهم لو سئلوا عن الأرض ومن فيها لأجابوا بالإيجاب وسيقولون لله جميعاً، قل: أفلا تذكرون؟.

والسؤال هنا عن ملكية الأرض ومن فيها، وفى نهاية السؤال يقول: "إن كنتم تعلمون" فإن كانوا من أهل العلم أجابوا لله، وإن لم يكونوا من أهل العلم، ألزمهم حجة أهل العلم وقالوا: لله.

كما أن فى قوله: "إن كنتم تعلمون" أسلوب شرط جوابه محذوف دل عليه الاستفهام قبله والتقدير: إن كنتم تعلمون فأخبرونى عن ذلك، وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم، حيث يتوجهون بعد هذا الإقرار بملكية الله للأرض ومن فيها إلى عبادة غيره.

وفى قوله: "أفلا تذكرون" الهمزة للإنكار، والفاء عاطفة على مقدر دل عليه السياق.

و"تذكرون" أصله: تتذكرون فحذفت تاؤه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾:

أعيد لفظ "الرب" تنويها بشأن العرش، ورفعاً لمحله من أن يكون تبعاً للسموات، وجوداً أو ذكراً.

أما "العظيم" بالجر نعت للعرش، وقرئ بالرفع نعتا للرب سيقولون لله" قرئ فى هذه الآية وفيما بعدها باللام "لله" واللام للملك.

وفى قوله "قل: أفلا تتقون" للتوبيخ، أى أتعلمون ذلك ولا تتقون أنفسكم عقابه على ترك العمل بموجب العلم حيث تكفرون به تعالى، وتنكرون ما أخبر به من العبث وتثبتون له سبحانه شريكاً.

﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟﴾:

والسؤال هنا عما هو أعم وأشمل مما فى السؤالين السابقين، وبذلك يكون التدرج الذى يجعلهم ينطقون بالصدق، ولا يكابرون.

"وصيغة "الملكوت" للمبالغة فى الملك فالمراد به الملك الشامل الظاهر، وقيل المالكية والمدبرية وقيل: الخزائن"(١٨١).

"وهو يجير" أى يمنع من يشاء ممن يشاء.

"ولا يجار عليه" ولا يمنع أحد أحداً من عذابه عز وجل، ولا يقدر على نصرته وإغاثته.

وهو طباق سلب فى إبراز قدرة الله تعالى.

وتعدية الفعل بعلى لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء.

يقال: أجرت فلانا، إذا استغاث بك فأغثته وحميته، وأجرت عليه إذا حميت عنه ودافعت.

"إن كنتم تعلمون" تكرير لاستهانتهم وتجهيلهم على ما مر وحذف جواب الشرط لدلالة الاستفهام عليه والتعبير "بإن" التى تفيد ندرة وقوع الشرط أو بعده، دون "إذا" التى تفيد تحقق وقوعه، والإخبار عن جواب الاستفهام قبل أن يجيبوا "سيقولون لله قل فأنى تسحرون" أنى اسم استفهام بمعنى كيف. أى تخدعون أو تصرفون عن الرشد مع علمكم به. وهى استعاره تبعية حيث شبه ما يقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحر من التخليط والتخبط.

والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً، والخادع هو الشيطان أو النفس (الهوى) أو كلاهما.

ومن الجمال البلاغى فى الآيات: أن الأسئلة فى صدورها وكذا فى عجزها يمهد السابق فيها للاحق ويقرر اللاحق السابق، وقد روعى فيها قضية التدرج فنجد الترتيب فى قوله تعالى:

١) (قل لمن الأرض ومن فيها؟)

٢) (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟)

٣) (قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه؟)

وقيل "بيده" تصويراً وتخييلاً فهى استعارة تمثيلية تبرز قدرته جل وعلا وهيمنته على ملكوت كل شىء.

وقد روعيت فى الأسئلة التمهيد، والتقرير، والتدرج وذلك على سبيل الإنكار والتوبيخ.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

فقد أكد الخبر الثانى بثلاثة مؤكدات: إن واللام، والجملة الاسمية.

ولم يؤكد الخبر الأول، على الرغم من أن المشركين ينكرون الخبرين معاً: ينكرون أن ما جاءهم هو الحق، وينكرون أنهم كاذبون، بل يعتقدون أنهم صادقون وعلى الحق يمضون.

فقد أنزل الله تبارك وتعالى قضية الحق منزلة غير المنكر، ليدل على وضوح الأدلة على كون ما أتاهم هو الحق. وفيه حث لهم على تأمل تلك الأدلة وتدبرها.

أما التوكيد الثانى، فذلك لكونهم فى حاجة إلى وقوع أسماعهم بهذا التأكيد دفعاً لإنكارهم، وتحريكاً لعقولهم.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

"ما اتخذ الله من ولد" لتنزهه عز وجل عن الاحتياج وتقدسه تعالى عن المماثلة، "وما كان معه من إله".

من: للتوكيد، لتأكيد النفى، وكان تامة.

والمعنى: ما اتخذ الله ولداً، وما وجد معه إله. "سبحان الله عما يصفون".

وفى قوله: "إذا لذهب كل إله بما خلق" إيجاز بالحذف حيث حذفت لو وشرطها، والمعنى: لو كان معه آلهة- كما تزعمون- إذا لذهب كل إله بما خلق، وذلك على اعتبار "إذا" حرف جزاء. أما على اعتبارها شرطية فيكون شرطها محذوفاً، وقد عوض عنه التنوين.

والتقدير: إذا كان مع آلهة لذهب كل إله بما خلق، والجمال البلاغى وراء حذف الشرط هو المبالغة فى تنزيه الله- عز وجل- عن الشرك، والرغبة فى ألا ينطق بتلك الجملة: "كان معه آلهة" ولو فرضا.

وفى قوله: "إذا لذهب كل إله بما خلق" أى لاستبد بالذى خلقه واستقل

به تصرفاً وامتاز ملكه عن ملك الآخر.

لأنه لو كان له ولد، لكان شريكاً له فى الألوهية، ولو كان معه ند من آلهة أخرى، لتعددت الآلهة.

وتعدد الآلهة- سواء عن طرق الولد أو الند- يؤدى إلى اقتسام مجالات المخلوقات بينها، فيكون لكل إله مجال محدد ومعين من المخلوقات.

وإذا اقتسمت الآلهة مجالات المخلوقات بينها، فإن بعضها سيطو على البعض الآخر. بحكم المنافسة بينها- أى أن بعضها سيعرض مظاهر قدرته على البعض الآخر.

ومن الجمال البلاغى التعبير "بإذا" دون "إن" التى تناسب هذا المقام من قبيل مجاراة الخصم، و"ما" فى قوله "بما خلق" موصوله حذف عائدها، والمعنى: بالذى خلقه، وقيل هى مصدرية والمعنى: بخلقه.

وفى قوله: "سبحان الله عما يصفون" مبالغة فى تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، فسبحان الله معناه: تنزيهه تعالى عن كل ما لا ينبغى له أن يوصف به، فهذا اسم فعل يقوم مقام المصدر "تسبيحاً"، تقول: سبحت الله تسبيحاً أى: نزهته تنزيها. "وما" إما اسم موصول حذف عائده أو مصدرية، والمعنى: سبحان الله عن الذى يصفونه به أو عن وصفهم، وقرئ: "تصفون" بتاء الخطاب.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

وبجانب استحالة التعدد فى الآلهة فى واقع الأمر، لما وضح قبلاً.. فإن الله كذلك يتصف بالعلم الشامل: للمشاهد وغير المشاهد، ولما مضى، ولما هو آت، ومن يكون علمه شاملاً يجب أن يكون واحداً. غير متعدد. لأن الشمول لا يتحقق إلا لواحد.

وعالم: قرئ بالجر على أنه بدل من لفظ الجلالة أو صفة له، لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة، وقرئ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ

محذوف أى: هو عالم.

ولا يخفى جمال الطباق فى الغيب والشهادة.

"فتعالى عما يشركون" تفريق على كونه تعالى عالماً بالغيب والشهادة، فهى كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل على انتفاء الشريك، والفاء عاطفة على معنى ما تقدم.

و "ما" فى قوله: "عما يشركون" إما موصولة أو مصدرية.

١٢- نصائح للرسول ﷺ

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ{٩٣} رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٩٤} وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ{٩٥} ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ{٩٦} وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ{٩٧} وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ{٩٨} حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٠٠}﴾:

في ظلال الآيات:

التجاء إلى الله ورجاء لرحمته ورضوانه: من الرسول ﷺ- وهو خير من عصم الله- ليعلمنا- سبحانه وتعالى- آلا نأمن من مكره، وأن نكون دائماً معه. ليرجع المسئ عن إساءته ويزداد المحسن إحساناً- ولنا في رسول الله أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. وهو التجاء محمود حث الله عليه رسوله لنقتدى به.

وأمنية يتمناها الكافر من الله حيث يحضره الموت: أن يعود إلى دنياه ليستدرك ما فات، وليعمل صالحاً!! ولكنها أمنية تذهب أدراج الرياح، لأنها صدرت فى لحظة الضيق فليس لها فى القلب من رصيد.

وما أحرى كل مذنب أن يتدارك أمره وهو فى دار الزرع والعمل، قبل أن يدركه الموت فيصير فى دار حصاد وحساب وليس إلى رجوع من سبيل.

الآيات الكريمة عظة وعبرة يذكرها القرآن الكريم للأشرار والأبرار.

فالله تبارك وتعالى يأمر نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم، (رب إما ترينى ما يوعدون)، أى أعاقبتهم وأنا شاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى "وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون"(١٨٢).

وفى قوله: "وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون" أى لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم أمر رسوله فى معاملة الكفار أن يدفع السيئة بالتى هى أحسن، فيحسن إلى من يسئ ليطيب خاطره، فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١٨٣).

وقد دعا الله رسوله إلى الصبر والاحتمال، وهو الذى يتولى جزاء الكافرين "نحن أعلم بما يصفون" من الشرك والإساءة للرسول، وفى هذا تهديد لهؤلاء الكفار الذين يسيئون إلى الرسول والمسلمين، فتقابل إساءتهم بالإحسان ثم لا يرودهم هذا الإحسان عن ضلالهم وعدوانهم، فليفعلوا ما يشاءون فالله عالم به ومحاسبهم عليه.

ثم يأمر رب العزة، رسوله ﷺ والمؤمنين بالتعوذ من الشيطان فى همزاته، وهى سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه، وكأنها هى التى كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحادة فلذلك اتصلت بهذه الآية(١٨٤).

وروى عن على بن حرب بن محمد الطائى حدثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حبان أن خالداً كان يؤرق من الليل فذكر ذلك للنبى ﷺ، فأمره أن يتعوذ بكلمات الله التامة من غضب الله وعقابه، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون"(١٨٥).

"حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون" عاد الكلام هنا إلى ذكر المشركين، وتلك الكلمة يقولها الكافر عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، يتمنى أن يرجع إلى دنياه؛ ليستأنف حياته من جديد، ويعمل صالحاً، فيرده الله ويزجره وينكر عليه مطلبه ويستبعده.

وفى قوله: "كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون" هى كلمة يقولها لا محالة ولكن لا فائدة منها ولا جدوى لها، فلن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، ومن وراء الكفار برزخ يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وسيظلون هكذا حتى يأذن الله بالبعث وفى ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١٨٦).

التحليل البلاغي:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ. رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

قد جاء الدعاء فى تضرع مؤكد "إما ترينى" ومـا، والنـون: للتوكيـد وبتكرار كلمة: "رب، رب" قبل الشرط وقبل الجواب ذلك توجيه الله لرسوله: البار التقى النقى، وهو حبيبه المطيع، فماذا يجب على عامة المسلمين؟!.

و"ترى": يتعدى لمفعولين؛ المفعول الأول ضمير المتكلم العائد إلى النبى ﷺ، والثانى "ما" الموصوله فى قوله "ما يوعدون" وفى قوله "ما يوعـدون" أى الذى يوعدونه من العذاب الدنيوى المستأصل وأما العذاب الآخرى فـلا يناسب المقام، وقد وعد الله نبيه ﷺ ألا يعذبهم وهو فيهم فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(١٨٧).

وفى قوله: "رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين" لنـداء "رب" معتـرض بين الشرط والجواب مبالغة فى التضرع، والفاء واقعـة فـى جـواب "إن" والمعنى: إن أنزلت بهم النقمة يا رب فاجعلنى خارجاً عنهم ولا تجعلنى قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب".

ووضع الظاهر "فى القوم الظالمين" موضع المضمر إذ الأصل: فـيهم، وذلك تسجيلاً عليهم وإشارة إلى استحقاقهم العذاب بما ارتكبـوا مـن ظلـم وبغى.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾:

وهنا يشد الله- عز وجل- عضد رسوله، ويدعوه وأمته إلـى مكـارم الأخلاق ففى مقدور الله أن يرى رسوله ما أوعد به الكفار وهذا أمر مؤكـد "بإن، وأن، واللام وبصيغة التعظيم: "ترى، نعد، قـادرون"، وتقـديم الجـار والمجرور.

وقد حدث ذلك فيما بعد يوم بدر، والفتح، وفيما أصابهم الله به من القحط والجوع، فابتلاهم بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وكانوا قبل ذلك ينكرون العذاب ويسخرون من النبى ﷺ إذا أخبرهم به.

وفى قوله: "تعدهم" استعارة عنادية تهكمية حيث استعير الوعد والوعيد عل سبيل السخرية والتهكم، واشتق منه "تعد" بمعنى "توعد" على سبيل الاستعارة التبعية العنادية.

وفى قوله "ادفع بالتى هى أحسن السيئة" حث النبى ﷺ إلى ما يليق بشأنه الكريم من حسن الأخلاق وكمال الفضائل.

وأوثر التعبير بصيغة التفضيل "أحسن" لكونه أبلغ من أن يقال: ادفع بالحسنة السيئة".

وفى قوله: "نحن أعلم بما يصفون" قدم المسند إليه "نحن" على خبره الفعلى للدلالة على القصر، قصر علم ما يصفون على ضمير العظمة، قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً. وفيه شده وعيد للمشركين. وتسليه لرسول الله ﷺ.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾:

الهمز: النحس، ومنه همز الرائض دابته ليحثها على سرعة المشى.

وهمزات الشياطين: وسواسهم، فالشياطين يحثون الناس على المعاصى كما يستحث الرائض دابته على سرعة السير.

وكان النبى ﷺ يتعوذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه(١٨٨).

ومن نفخه ونفثه فكان يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه"(١٨٩).

وفى قوله: "همزات الشياطين" للدلالة على تنوع الوساوس وكثره

المرات فجمعت "همزات"، ولتعدد الشياطين جاء لفظ الشيطان بالجمع أيضاً.

وفى الأمر بالتعوذ من الحضور بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة فى التحذير من ملابستهم.

وفى تكرار "أعوذ بك" وتكرار "رب" إظهار لكمال العناية بالمأمور به، وحث على الاعتناء، وعرض نهاية الابتهال فى الدعاء والتضرع.

وفى قوله: "أن يحضرون" حذف الجار والمجرور للدلالة على وجوب الاستعاذة من حضورهم فى كل حال من الأحوال.

وهنا يوجه الله رسوله بأن يستعيذ به حتى من مجرد قرب الشياطين منه فى أى عمل من أعماله، وفى أية حال من أحواله فى حياته أو عند مماته. وقد أفادنا هذا العموم حذف المفعول من "يحضرون".

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾:

"حتى" ابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهى غاية لما قبلها.

والمراد بمجئ الموت: ظهور أمارته، ومجئ علاماته، أى: إذا ظهر لأحدهم أمارات الموت وبدت له أحوال الآخرة، قال تحسراً وندماً على ما فرط فى جنب الله تعالى: "رب ارجعون".

والتعبير بإذا دون "إن" لتحقق مجئ الموت، فهو آت لا محالة.

وخطاب الله تعالى بلفظ الجمع "ارجعون" للتعظيم والإجلال فالتعظيم كما يكون فى ضمير المتكلم يكون فى ضمير المخاطب وضمير الغائب والاسم الظاهر، ولا وجه لإنكار ذلك.

وقيل "الواو" لكون الخطاب للملائكة عليهم السلام، والكلام على تقدير مضاف أى يا ملائكة رب ارجعوا"(١٩٠).

وقال المازنى: جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعون ارجعنى ارجعنى، ومثل ذلك تثنية الضمير فى قفانبك ونحوه".

وفى قوله: "لعلى أعمل صالحاً فيما تركت" أى فى الإيمان الذى تركته ولعل للترجى وهو إما راجع للعمل والإيمان لعلمه بعدم الرجوع أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه.

فقد حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وحذف مفعول ترك.

﴿كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

كلا: كلمة تفيد الرد، والردع، والزجر. لطلبهم الرجوع. البرزخ: الحاجز، والموت حاجز بين الدنيا والآخرة.

والضمير فى "إنها" يرجع إلى قوله "رب ارجعون لعلى أعمل..." أى إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة فلا يخليها، ولا يسكت عنها، لاستيلاء الحسرة، وتسلط الندم عليه، فتقديم المسند إليه لتأكيد القول وتقويته، أو هو قائلها وحده، فلا يجاب إليها ولا تسمع منه، ولا يعتد بقوله. لأنه لا فائدة منها ولا جدوى لها.

وإن هذه الأمنية المردودة- أمنية العودة إلى الحياة الدنيا- يتمناها العاصون والمقصرون فى مراحل: الاحتضار، والنشور والعرض على الله، وحين يعرضون على النار، وفى غمرات العذاب.

وفى قوله: "ومن ورائهم برزخ"، الوراء قيل بمعنى: بعد أى: ظرف زمان، والمعنى: ومن بعد موتهم، ومثله قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ﴾(١٩١).

وقيل بمعنى "أمام" أى: ومن أمامهم برزخ، فهو من أسماء الأضداد، لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر. ومن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾(١٩٢).

وقد اختلف فى المراد فقيل: إن المراد من ورائهم حاجز من القبور، بين الموت والبعث باق إلى يوم يبعثون، وقيل حاجز بينهم وبين الجزاء التام، باق إلى يوم القيامة.

١٣- مشاهد من يوم القيامة

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلايَتَسَاءلُونَ{١٠١} فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٠٢} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{١٠٣} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ{١٠٤} أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{١٠٥} قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ{١٠٦} رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ{١٠٧} قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ{١٠٨} إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{١٠٩} فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ{١١٠} إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ{١١١}﴾:

في ظلال الآيات:

هي نفخة البعث والنشور، فيشغل الإنسان بشأنه عما سواه، فتنقطع الروابط، فلا يلوذ القريب بالقريب، ولا يجد عنده عون أو نصيراً، فقد تقطعت الأنساب، إنهم يعيشون يوم الهول. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(١٩٣).

وتعرض الآيات الحساب والجزاء في صورة حسية موجزة، وفيها من الدلالات على الأهوال الكثير والكثير، ففي هذا اليوم توضع الموازين للحساب، ويرى كل إنسان ميزانه، وما يوزن فيه، ولا ترجح الموازين إلا بالأعمال الصالحة، أما الأعمال السيئة فلا وزن لها لأنها عمل كافر لا يؤمن بالله وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾(١٩٤).

ويوم البعث يكون الأمر لنوع العمل وحده، فمن كان عمله صالحاً وهو من ثقلت موازينه، فهو: الناجح والناجي من العقاب. ومن كان عمله سيئاً وهو من خفت موازينه فهو الخاسر والمستحق لعقاب الله وغضبه، وهو

الخلود فى نار جهنم، بعد أن تصيب النار وجوههم وتكلح شفاههم وتشوه سماتهم.

وفى إقامتهم وعذابهم فى نار جهنم، يذكرون: بأنهم كانوا يكذبون بالقرآن، عندما كان يتلى عليهم، وهذا هو سبب عقابهم الآن.

قالوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين.

فلسان حالهم يردد: بأن سوء العاقبة قد سيطر عليهم فى أمر دنياهم، فهم مقدورون على ما فعلوا. وذلك بسبب أنهم كانوا فى ضلال المادية واضطراب توجيهها. وأنهم لو أخرجوا من النار الآن- وهم يرجون ذلك من الله- وعادوا إلى الدنيا فإنهم يعدون: "بأنهم لا يباشرون أى انحراف من انحرافات الماديين وإلا أقروا عندئذ على أنفسهم بالظلم والخسران".

ولكن الوقت قد فات عليهم الآن، وأصبح أمرهم مقرراً فى أعماق جهنم. ولذا كان جواب ما يتمنونه هو: أن يؤمروا بالصمت، وعدم الكلام، وأن يطردوا إلى العمق فى دار العقاب.

وما ينتظر المشركين من عقاب على هذا النحو، كاف بأن يذكرهم الآن فى دنياهم: "بأن ما هم فيه لا يؤدى إلى سوء مصيرهم هم، واستعمال الحكمة إذن معهم ودفع السيئة بالتى هى أحسن ربما يقرب بعض نفوسهم من الإيمان بالله ويحولهم مما هم فيه إلى الصراط السوى".

كما يذكر هؤلاء المشركون أيضاً بما فعلوه مع المؤمنين الصادقين من سخرية واستهزاء بسبب إيمانهم بالله تعالى، واستغفارهم على ما مضى من ذنوبهم قبل الإيمان.

وهذا أيضاً سبب من أسباب جزائهم بالخلود فى نار جهنم لأنهم شغلوا أنفسهم بالسخرية والاستهزاء، فلم يفكروا جدياً فى الله وفيما أنزله على رسوله ﷺ من رسالة، وفيما دعاهم إليه لصالح أنفسهم وصالح البشرية، فكانوا يصدون عن سبيل الله بإرهابهم الآخرين من الضعفاء، الذين يرجون

لقاء الله فى اليوم الأخر.

ثم تشير الآيات إلى جزاء المؤمنين الصادقين على إيمانهم وصبرهم على الإيذاء من المشركين، فكان جزاؤهم اليوم ما ترون من الفوز بالجنة والنعيم، أما أنتم- أيها المشركون- فقد استمتعتم فى دنياكم، وليس لكم هنا اليوم إلا العذاب على ما اقترفتوه من الآثام والذنوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ. فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ. هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[١٩٥].

التحليل البلاغي:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ﴾:

"فإذا نفخ فى الصور لقيام الساعة، وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور، وقيل: المعنى فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها على أن الصور جمع صورة" وأيد بقراءة ابن عباس، والحسن، وابن عياض (فى الصور) بضم الصاد وفتح الواو، وقراءة ابن رزين (فى الصور) بكسر الصاد وفتح الواو فإن المذكور فى هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنى القرن"[١٩٦].

ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرن، الذى جاء فى الخبر ودلت عليه آيات أخر، وبين النفخ فى الصور جمع صورة لاختلاف المقامات والسياقات التى ورد فيها الحديث عن النفخ...".

"فلا أنساب بينهم" والمراد بنفى الأنساب: أنها لا تنفعهم شيئاً فهى منزلة العدم، أو التفاخر بها، أو الإلتفات إليها. أى لا يتفاخرون بالأنساب فى ذلك اليوم ولا يذكرونها، لماهم فيه من الحيرة والدهشة.

وهذا الحكم قيل إنه خاص بالكفرة لما يقتضيه عود الضمير فى قوله

"بينهم" على المشركين، وقيل إنه عام لقوله عقب هذه الآية: "فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون".

وفى قوله: "فلا أنساب" واقعة فى جواب إذا، ولا نافية للجنس تعمل عمل إن، وأنساب اسمها مبنى على الفتح، وبينهم خبرها...

فقد أخرج البراز، والطبرانى، والبيهقى، وأبونعيم، والحاكم والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى" وهذا بالنسبة للمؤمنين الذين تشرفوا به، وأما الكافر والعياذ بالله تعالى فلا نفع له بذلك أصلاً.

أما فى قوله "ولا يتساءلون" أى ولا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وممن هو، فقد استغرقه الهول، فأشغله وأذهله عن التحادث والتساؤل. وذلك عقب النفخة الثانية من غير فصل. فهو مقيد بيومئذ وإن لم يذكر بعده اكتفاء بما تقدم.

ويذكر القرآن الكريم فى مواضع أخرى إثبات التساؤل للمشركين فى قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ. مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾(١٩٧).

كما نقرأ تساؤلهم فى ذلك اليوم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾(١٩٨).

فما وجه الجمع بين إثبات التساؤل فى تلك الآيات، وبين نفيه فى هذه الآية؟: يكمن وجه الجمع بين نفى التساؤل وإثباته فيمايلى:

١- يجوز أن يقال إن قولهم: "من بعثنا من مرقدنا؟" كان قبل تحقق أمر تلك النفخة الثانية لديهم، وأن الحكمين المذكورين- نفى الأنساب ونفى التساؤل- كانا بعد تحققها ومعرفة أنها لماذا كانت، ويحتمل أن يكون الحكمان فى مبدأ الأمر قبل القول المذكور.

٢- أن يكون تساؤل الكفرة المنفى هنا عقب النفخة الثانية وأما تساؤلهم المثبت فهو عند جهنم ومعاينة العذاب، وهو بعد النفخة الثانية بكثير.

٣- قيل المنفى التساؤل بالأنساب، فكأنه قيل لا أنساب بينهم ولا يسأل بعضهم بعضاً بها؛ لأنها لا تنفع، والتساؤل المثبت ليس تساؤلاً بالأنساب كما هو واضح.

٤- "روى جماعة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه سئل عن وجه الجمع بين نفى التساؤل هنا وإثباته هناك فقال: إن نفى التساؤل فى النفخة الثانية، وعلى هذه الرواية فالمراد عنده بقوله تعالى "فإذا نفخ فى الصور" النفخة الأولى، وهى إحدى روايتين عنه، والرواية الثانية حمله على النفخة الثانية، وعندئذ يختار فى وجه الجمع أحد الأوجه المذكورة قبل"[١٩٩].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾:

حساب وجزاء تعرضهما الآيات فى صورة حسية موجزة، وفيها من الدلالات على الأهوال الكثير والكثير، ففى هذا اليوم توضع الموازين للحساب، ويرى كل إنسان ميزانه، وما يوزن فيه، ولا ترجح الموازين إلا بالأعمال الصالحة.

وجملة "فأولئك الذين خسروا أنفسهم" خبر "من" وقد جاء اسم الإشارة "أولئك" للجمع، وكذا جمع الضميران: "خسروا أنفسهم" مراعاة لمعنى الموصول "من" وأفرد فى الصلة "موازينه" والخبر الأول اسم الموصول "الذين" وجوز أن يكون "فى جهنم خالدون" خبراً لمبتدأ محذوف أى هم خالدون فى جهنم، والجملة إما استئنافية جئ بها لبيان خسرانهم أنفسهم، وإما خبر ثان أيضاً لأولئك.

وفى قوله: "تلفح وجوههم النار".

اللفح: مس لهب النار الشىء، وهو أشد تأثيراً من النفح، ويقال: لفحته النار إذا أحرقته، ولفحته بالسيف إذا ضربته.

"تلفح وجوههم النار" جملة حالية أى: حالهم يومئذ تحرق وجوههم النار، أو مستأنفة، أو خبر ثان لأولئك.

وخصت الوجوه بذلك، لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار، وهذا هو السر أيضاً وراء تقديمها على الفاعل...

وقوله: "وهم فيها كالحون" هذه الجملة فى محل نصب على الحال والكالح: الذى تمسخ هيئته، وتشوه منظره.

ولأنهم خسروا نعيم الجنة، وأبدلوا به خلوداً فى جهنم، والنار تلفح وجوههم، فتمسخ هيئاتهم، وتشوه مناظرهم وحينئذ يغشاهم الهم والكرب.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾(٢٠٠).

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته"(٢٠١).

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾:

على إضمار القول، أى يقال لهم توبيخاً وتقريعاً وتعنيفاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب: ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون، لقد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت لكم الكتب، فكذبتم الرسل، وأنكرتم الكتب، فذوقوا العذاب بما كنتم تكذبون.

وقد عرض القرآن الكريم هذا الموقف بشىء من التفصيل فقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ

السَّعِيرِ﴾(٢٠٢).

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾:

وقد خيل إلى هؤلاء الكفار، وقد سمعوا قوله تعالى: (ألم تكن آياتى تتلى عليكم)- أنهم مسموح لهم بالكلام، والتقدم بالرجاء، عند ذلك: قالوا: "ربنا غلبت علينا شقوتنا".

وهى جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر، ماذا قالوا عند ذلك؟

والشقوة: مصدر ضد السعادة.

وهو رجاء مشوب بالحسرة والندم، والمرارة والتلهف، إنهم أقروا بالذنب وقالوا: غلبت علينا شقوتنا، والواقع أن الذى غلب عليهم فى دنياهم هو لذاتهم وأهواؤهم لا شقوتهم. وهاهم أولاء يسمونهما شقوة غالبة لأنهما لذات وأهواء انتهيا بهم إلى التعاسة والشقاء، وكانوا فى ذلك ضالين طريق الهدى والرشاد- وفى قوله "شقوتنا" مجاز مرسل علاقته السببية، حيث أطلق المسبب "الشقوة" وأريد السبب وهو المعاصى والهوى واللذات.

"وغلبت علينا شقوتنا" استعارة مكنية. حيث شبهت الشقوة بمعنى المعاصى والهوى واللذات، بقادر فاتك لا يستطيعون مقاومته، ثم حذف المشبه به، ورمز له بشىء من لوازمه، وهو "غلبت" على سبيل الاستعارة المكنية.

وتابعوا الرجاء فى استخزاء ولهفة، قائلين: ربنا أخرجنا من هذا البلاء، وأرجعنا إلى دنياناً، نجب دعوتك ونتبع رسلك، الآية اعتراف منهم بضلالهم، ويؤيد دعوى الاعتراف قوله تعالى حكاية عنهم: "ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون".

أى ربنا أخرجنا من النار، وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه فيها من الكفر والمعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم. وذلك لأن اجتراءهم على هذا الطلب أوفق بكون ما قبله اعترافاً بضلالهم، فإنهم إنما

قالوه تمهيداً للطلب المذكور، إذ هو مظنة تسكين لهيب الغضب. ولكن لا سبيل إلى خروجهم من النار، ولن يعودوا إلى دنياهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٢٠٣).

وفى قوله تعالى: (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) عبر بإن دون "إذا" للدلالة على أن عودتهم إلى ما كانوا عليه من العصيان والمكابرة، من الأمور المستبعدة المحالة، فهم يخبرون بأنهم جادون مصرون- لو خرجوا من جهنم وردوا إلى الدنيا- على تغيير منهجهم الذى نهجوه وتبديل مسلكهم الذى سلكوه، والتعبير بالعود: "عدنا" وحذف الجار والمجرور يشعر بندمهم وشدة خجلهم، إذا التقدير: فإن عدنا إلى الكفر والعصيان، وكأنهم يأبون التلفظ بهذا المحذوف، ويريدون طيه ومحوه.

والمراد بالأمر فى قوله: "أخرجنا" الدعاء والتضرع، ووراء النداء "ربنا" وحذف حرف النداء من الخضوع والتذلل، وشدة التقرب إلى الله عز وجل، وتأكيد الخبر: "فإنا ظالمون" يشعر بمدى انفعالهم، وامتلاء أنفسهم به، وقوة إصرارهم على الإيمان والطاعة، لو ردوا إلى الدنيا.

﴿قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾:

الخسئ: إبعاد بمكروه، من خسأت الكلب إذا زجرته وطردته.

لقد زجرهم الله زجراً عنيفاً، امكثوا فى جهنم واسكنوها سكنى الذلة والهوان، واخرسوا ولا تتكلموا فإنكم تستحقون ما أنتم فيه من الهوان، فإنكم لم تنكروا الرسالة، وتكذبوا الرسول فقط، ولكنكم تجاوزتم فسخرتهم من المؤمنين الذين أعلنوا إسلامهم، وحاربتهم الله بشرككم وكفركم، كما حاربتم رسوله والمؤمنين.

وفى قوله تعالى: "قال اخسأوا فيها ولا تكلمون" وصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقتا فى الإنشائية لفظاً ومعنى، وفصلت جملة "اخسأوا" عما قبلها للاستئناف البيانى، إذ وقعت جواباً لسؤال انبعث مما قبلها تقديره: فماذا قال لهم ربهم؟ فأجيب: قال اخسأوا فيها ولا تكلمون،

وفى "اخسأوا" استعارة مكنية حيث شبهوا بالكلاب، التى تخسأ إبعاداً وطرداً وهواناً، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو "اخسأ" على سبيل الاستعارة المكنية".

وهو يوضح مدى الإهانة والإذلال من خلال الأمر والنهى.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾:

وفى قوله: إنه تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أى: إن الشأن كان: فى الدنيا التى تريدون الرجعة إليها.

"فريق من عبادى" وهم المؤمنون، وقيل: هم الصحابة، وقيل: أهل الصفة (رضى الله تعالى عنهم أجمعين).

وقد وضع الضمير فى "إنه" موضع الاسم الظاهر، فهو ضمير الشأن والغاية من ذلك ترسيخ المعانى المذكورة، وتثبيتها فى الأذهان، ويرجع ذلك إلى الإيضاح بعد الإبهام الذى يكمن وراء ضمير الشأن. فالشىء إذا أبهم تطلعت النفوس، وتشوقت لمعرفته، فعندما يأتى الإيضاح بعدئذ يقع فى النفس موقعه، لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع.

وفى قوله: "من عبادى" تعظيماً وتكريماً لهؤلاء العباد الذين نسبوا إلى الله تعالى. حيث نكر "فريق" وأضيف إلى الله تعالى.

وفى قوله: "يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين" والجملة من القول ومقوله فى محل نصب خبر كان، وكان واسمها وخبرها فى محل رفع خبر إن، وجملة وأنت خير الراحمين فى محل نصب حال من الفاعل المستتر فى "اغفر وارحم" والذى يعود إلى "الرب" جل جلاله.

وأصل الغفر: التغطية والستر، يقال: غفر الله الذنب أى: ستره فهو الغفور والغفار. صيغتا مبالغة، ومعناهما: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. والرحمة الرقة والتعطف ومثلها المرحمة.

يقال: رحمته بكسر الحاء، وترحمت عليه دعوت له بالرحمة، واسترحمه: سأله الرحمة، وتراحم بالقوم: رحم بعضهم بعضاً، وتطلق الرحمة على المغفرة، وعلى الرزق، وعلى الخصب، والرحم: أسباب القرابة، ومنبت الولد، والرحمن من أسماء الله عز وجل، وبنيت صيغته على "فعلان" لأن معناها الكثرة، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء.

وفى قوله تعالى: "فاتخذتموهم سخريا" سخرياً: مصدر سخر، زيدت عليه ياء النسب للمبالغة. والمعنى عليهما واحد وهو الهزؤ وقيل المكسور من الهزؤ والمضموم من السخرية والعبودية والاستخدام بغير أجرة.

وتنبئ الفاء فى "فاتخذتموهم" بمدى عناد الكفرة ومكابرتهم.

وفى إسناد الإنساء إلى الضمير العائد إلى المؤمنين فى قوله "أنسوكم" مجاز عقلى علاقته السببية؛ لأن أولئك المؤمنين لم ينسوهم الذكر، وإنما كانوا السبب فيه.

ويشعر هذا المجاز بشدة اشتغالهم بالاستهزاء، فقد بلغ مبلغاً أنساهم ذكر ربهم، ومما ينبئ بذلك تقديم الجار والمجرور فى قوله: "وكنتم منهم تضحكون".

فهو يدل على القصر، قصر الضحك على كونه منهم دون غيرهم، فقد اتخذوهم أضحوكة، إذا أرادوا الضحك والتسلية، فهم يتسلون، ومنهم يضحكون، وهذا غاية الاستهزاء والاستخفاف...

وفى قوله تعالى: (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى، وهذا الاستئناف يؤذن بحسن حال المؤمنين وسمو مكانتهم، فقد انتفعوا بما أوذوا فى الدنيا، كما ينبئ بتوبيخ الكفرة وإهانتهم وتحقيرهم، ومما يبرز مكانة المؤمنين ورفعة شأنهم، قصر الفوز عليهم فى قوله: "أنهم هم الفائزون".

وهذا القصر طريقه توسط ضمير الفصل، أو تعريف المسند بأل الجنسية.

١٤- الدعوة إلى تأمل حكمة الله فى خلق البشر

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ{١١٢} قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ{١١٣} قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١١٤} أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ{١١٥} فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{١١٦} وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{١١٧} وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{١١٨}﴾:

في ظلال الآيات:

وتختم الآيات بأنه لا ينبغى لهؤلاء المشركين أن يعتقدوا أنهم خلقوا هكذا عبثاً، وإنما البشر جميعاً خلقوا لعبادة الله وحده قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾(٢٠٤).

ولذا تختم السورة بسؤال يوجه إلى أهل النار وقد أيأسهم الله من الخروج منها، كم سنة أقمتموها فى دنياكم؟، والله- عز وجل- يعلم ولكنه يوبخهم، فإذا أقروا أنها ايام قصار باعوا بها حياتهم فى الآخرة، حياة الخلود كان ذلك أشد فى توبيخهم، وأدل على حماقتهم.

والسؤال عن عدد السنين، والإجابة "لبثنا يوما أو بعض يوم" لأنهم قاسوها بأيام الآخرة الطوال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢٠٥).

ولأن سنين المحنة التى يقاسونها طويلة ثقيلة، وسنين النعيم التى مرت عليهم- شأن أزمان النعيم- قصيرة والممتحن يستطيل أيام محنته، ولأن المنقضى فى حكم ما لم يكن، "فاسأل العادين".

فليس لديهم عقل يفكر ويعلم السنين والحساب.

"قال: إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون".

وهذا الجواب الذى عز على عقولهم، وضل عن إدراكهم، وكأنه- عز وجل- يقول لهم ما لبثتم إلا قليلاً لو كان عندكم عقل تفكرون به وأنتم فى دنياكم، ولما شغلكم هذا القليل الفانى عن آخرتكم الباقية الخالدة قال تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾(٢٠٦).

ويأتي السؤال الثاني:

هل تصورتم أنكم خلقتم عبثاً "مهملين كالبهائم" لا ثواب لها ولا عقاب عليها قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢٠٧).

فما كنا عابثين إذ خلقناكم، فللخلق حكمة هى التكليف، وعبادة الخالق، ثم الرجوع- بعد ذلك- من دار التكليف إلى دار الجزاء فيثاب المحسن، ويعاقب المسئ، فحكمة البعث من حكمة الخلق، مقدرة معه، ومدبر حسابها والحياة الآخرة تمثل طوراً من أطوار الخلق، يبلغ بها الإنسان الكمال، ويصل إلى غايته.

فتقدس الله أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، الذى يحق له الملك، فكل شىء منه وإليه ولأنه الحق صاحب العزة والسلطان الذى لا يزول ملكه أبداً فهو "رب العرش الكريم".

وتنتقل الآيات إلى توعد رب العزة- تبارك وتعالى- من أشرك به غيره- وعبد معه سواه، وادعى بألوهية أحد مع الله- وهى دعوى باطلة- لا يقوم معها برهان، لا من دلائل الكون ولا من منطق الفطرة، ولا من حجة العقل، فحسابه عند الله يعاقبه أشد عقاب، فالإيمان بالله- عز وجل- أولى قضايا العقل ومستلزمات الفطرة يرتبط بها مصير الإنسان وحياته الأخروية.

وبهذه الآية والآية التى بعدها نصل إلى ختام هذه السورة الكريمة، فيلتقى ختامها مع بدئها، فقد بدأت بهذه البشرى "قد أفلح المؤمنون" وجاء فى ختام هذه الآية "إنه لا يفلح الكافرون" لنعلم الحكمة فى خلق البشر "التكليف، ثم الثواب والعقاب" وطرفاه فلاح للمؤمنين، ولا فلاح للكافرين.

ثم تكون الخاتمة بالتوجه إلى رسول الله ﷺ أن يتوجه هو والمؤمنين بالدعاء إلى الله- سبحانه وتعالى- وأن يسألوه المغفرة والرحمة لتشرق حياتهم، ويفتح لهم باب الأمل فى التوبة من كل نخطايا والذنوب، فرحمته وسعت كل شىء. قال تعالى: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم).

فإذا أدركت رحمة الله أحداً أغنته عن رحمة غيره، أما رحمة غيره لا تغنيه عن رحمه الله. ولذلك ختم بقوله تعالى: (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين).

التحليل البلاغي:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ، قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قال كم لبثتم: الضمير فيه يرجع إلى الله تعالى أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وذلك عندما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبروا باستحالة ذلك الرجوع، فجاء الاستفهام على سبيل التبكيت والتوبيخ.

وقد أخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة.

وفى قوله: "فى الأرض": الأرض التى طلبوا الرجوع إليها، أى: الحياة الدنيا واستخدام القرآن الكريم: "فى الأرض" بدلاً من على الأرض- كثير منه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾(٢٠٨).

وذكرت فى سورة "المؤمنون" مرتين الأولى قوله تعالى "وهو الذى ذرأكم فى الأرض" والثانى فى سياق الاستفهام: كم لبثتم فى الأرض؟

وهذه من الإشارات والإعجازات العلمية للقرآن الكريم، حيث ثبت أن الغلاف الجوى جزء من الأرض، ونحن نعيش على سطح الأرض وفى أسفل الغلاف الجوى، فتكون حياتنا فى الأرض وليست عليها.

وفى قوله: "عدد سنين" انتصاب على التمييز، لما فى "كم" من الإبهام، وعدد مضاف وسنين مضاف إليه.

وفى إجابتهم: "قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم" يفيد قصر أيام الدنيا بالنسبة للآخرة. لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها.

وفى قوله: "فاسأل العادين" وهى إجابة اليأس والضيق والأسى والاضطراب، وكأن الهول قد أذهب عقولهم، فليس لديهم القدرة على التفكير

ومعرفة عدد السنين من شدة الهول والعذاب.

وقد صدقهم الله فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها فقال تعالى مؤكداً ذلك: "إن لبثتم إلا قليلاً" حيث قصر لبثهم على القلة قصراً حقيقياً.

لأنهم لم يحسنوا استغلال حياتهم، وغفلوا عن الحق وأعرضوا عن الإيمان والهدى ولما ذاقوا العذاب تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليغيروا مناهجهم.

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما): أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين"[٢٠٩].

وفى قوله تعالى: "لو أنكم كنتم تعلمون"، فحذف فعل الشرط "كان" ثم دخلت "أن" على الضمير فصار الكلام: لو أنكم كنتم تعلمون، وتأكد بهذا الحذف امتناع كونهم من أهل العلم، لأنه أبرز الكلام فى صورة ما قدم فيه المسند إليه على خبره الفعلى، وهذا التقديم يفيد التأكيد، فضلاً عن وجود أن، وهذا ينبئ بمدى غفلتهم وإعراضهم عن قبول الحق والهداية، وأكد ذلك بحذف كل من مفعول "تعلمون" وجواب الشرط.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾:

الاستفهام فى قوله: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون" للإنكار، إنكار أن يترتب هذا الحسبان على جهلهم.

فالإنكار للأمرين معاً: لعدم العلم وقد جاءهم الرسول.

ولذلك الحسبان، أو بمعنى آخر: لترتب الحسبان على عدم العلم الذى يرجع إلى عنادهم وغفلتهم عن الحق، وعلى اعتبار أن "ما" كافة "أن" عن العمل، تكون "أنما" دالة على القصر، قصر خلقهم على العبث قصراً حقيقياً.

والفاء فى قوله: "فتعالى الله الملك الحق" للإسراع بضرورة تقديس الله- تبارك وتعالى- أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك.

وهو الملك الحق: لأنه الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه. وهو الملك

الحق: لأنه المسيطر الحق الذى لا إله إلا هو صاحب العزة والسلطان. "لا إله إلا هو" فإن كل ما عداه عبيده تعالى. وقصرت صفة الألوهية على ضمير لفظ الجلالة قصراً حقيقياً تحقيقياً.

وفى قوله تعالى: "رب العرش الكريم" إسناد الكرم إلى الضمير العائد إلى العرش مجاز عقلى، حيث وصف العرش بوصف صاحبه، لشرفه بما أودع الله فيه من أسرار.

والأصل: العرش الكريم ربه.

ويجوز على سبيل الاستعارة المكنية، حيث شبه العرش لنزول الرحمة منه والبركة، بشخص كريم، وحذف المشبه به وأتى بشىء من لوازمه وهو الكرم.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾:

وقد حذف مفعول "يدع" وذلك على جعل "إلهاً" حال لازمه من لفظ الجلالة، والتقدير: ومن يدع مع تحقق وجود الله إلهاً شيئاً آخر، وهذا الحذف ينبئ بحقارة ذلك المدعو مع الله، ويشعر بأنه لا يستحق الذكر.

ويجوز إعراب إلهاً مفعولاً ليدعو، وآخر صفة ذكرت للتصريح بألوهيته تعالى، وللدلالة على الشريك فيها.

وفى قوله: "لا برهان له به" صفة لمفعول يدعو، وهى صفة لازمة جىء بها للتأكيد.

والبرهان: الحجة الواضحة والدليل الساطع، والمراد: نفى البرهان وإنزال السلطان، وإن لم يكن فى نفس الأمر برهان ولا سلطان.

ويجوز أن يكون قوله: "لا برهان له به" اعتراضاً بين الشرط والجزاء جىء به للتأكيد، ومنهم من جوز أن يكون جواب الشرط قوله تعالى: "لا برهان له به" على حذف الفاء.

وفى قوله تعالى: "فإنما حسابه عند ربه" تفريعاً على الجملة وليس هو

الجواب، والحساب كناية عن المجازاة، كأنه قيل: من يعبد إلهاً مع الله تعالى، فالله سبحانه مجاز له على قدر ما يستحق من عقاب وهو مبتدأ، وخبره "عند ربه".

وفى قوله: "إنه لا يفلح الكافرون" الضمير ضمير الشأن.

أى: إن الشأن لا يفلح الكافرون. وقرئ "أنه" بفتح الهمزة على التعليل، أو على جعل الحاصل من السبك خبر "حسابه".

أى: حسابه عدم الفلاح، ويكون الظرف "عند" المتعلق بمحذوف صفة للمبتدأ، والمعنى: فإنما حسابه الكائن عند ربه أنه لا يفلح الكافرون.

وقد روعى فى عود الضمائر: "يدع.. حسابه.. ربه".

لفظ "من" وروعى فى جمع "الكافرون" معناها، والأصل: فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح هو، أو فإنما حسابهم عند ربهم أنهم لا يفلحون، فوضع الظاهر "الكافرون" موضع الضمير(٢١٠).

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾:

الأمر من الله لتسلية رسوله ﷺ، والظاهر أن طلب كل من المغفرة والرحمة على وجه العموم له (عليه الصلاة والسلام) ولمتبعيه وهو أيضاً أعم من طلب أصل الفعل والمداومة عليه فلا إشكال.

وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه، وقد علم ﷺ أبابكر الصديق ﷺ أن يقول نحوه فى صلاته.

فقد أخرج البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى وابن ماجة، وابن حيان، وجماعة عن أبى بكر ﷺ أنه قال: يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال: قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم. ولقراءة هذه الآيات أعنى قوله تعالى "أفحسبتم" إلى آخر السورة على المصاب نفع عظيم وكذا المداومة على قراءة بعضها فى السفر"(٢١١).

الخـــاتمة

بالخلق والحياة، والموت والبعث، ووحدة الإله تختتم هذه السورة آياتها، وهى قضايا وردت من قبل موزعة فى مناسباتها، وآتت هنا مركزة تدعو إلى تأمل حكمة الله فى خلق البشر، وتزويدهم بالفكر والإرادة، وتمزيهم بالنظر فى العواقب.

ترى لماذا ميز الإنسان بهذه الخاصة؟ لا شىء إلا لأمر جعله الله فى العاقبة، وجعل حياته فى دنياه هذه يوماً أو بعض يوم.. هى حياة قليلة فانية بالنسبة لحياة أخرى طويلة باقية.

أما خلق الله لنا فأمر لا ينكره عامة البشر، ويكاد يكون الإيمان به فطرياً، وأعان هذه الفطرية أن الخلق واقع فعلاً، وأن البشر هم أنفسهم بعض هذا الخلق.

ويأتى الموت الشطر الأول من القضية الثانية "الموت والبعث" بعد الشطر الثانى من القضية الأولى "الخلق والحياة" يأتى واقعاً مسلماً لا إنكار فيه، وتكاد تكون القضايا الثلاثة "الخلق، الحياة، الموت" واضحة فى الفكر، ماثلة للعيان لا تحتاج إلى دليل أو برهان. فوقوعه وثبوته خير برهان لا يعتريه شك.

أما قضية القضايا التى اهتمت بها السورة الكريمة، وكانت محور هذه الآيات فهى "البعث، ووحدة الإله" وقد أنكرها الكفار فضلوا ولم يفلحوا، وآمن بها المؤمنون فهدوا وأفلحوا.

وتتفق جميع الأديان السماوية على حقيقة "البعث بعد الموت" وليس الموت إلا وسيلة للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف بالنسبة للأتقياء. فقد نبعت جميعها من مشكاة واحدة: "وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون".

والحياة الحقيقية هى التى عدها الله لعباده بعد الموت ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١٨٢]. فقدم الموت على الحياة.

وتقرر السورة قاعدة الإيمان الأولى وهى "التوحيد" وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله، فالله هو الملك الحق والمسيطر الحق، وهو صاحب السيطرة والاستعلاء هو "رب العرش العظيم".

ولن يقبل الله ذو العرش العظيم عقيدة إلا إذا كانت حقاً يؤازره البرهان، ومن ادعى غير ذلك فقد خسر وضل، وحسابه عند الله.

ثم يعلمنا الله- عز وجل- فى ختام السورة الكريمة أن نسأله المغفرة والرحمة لتشرق الحياة فى وجوهنا.

وما أجدرنا أن نردد عند ختام هذه السورة وعند تلاوة تلك (رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين).

الهـــوامش

(١) التفسير القرآنى للقرآن ص١١١٠.
(٢) الآية ١٤١.
(٣) القرطبى (عبدالله بن محمد بن أحمد الأنصارى- تفسير القرطبى- كتاب الشعب ط دار الريان للتراث- جـ٧ ص٤٤٩٤.
(٤) سورة المؤمنون الآيات من ٨٤: ٩٢.
(٥) البقرة آية رقم ٢١.
(٦) النساء الآية ١.
(٧) الأنعام ١٦٤.
(٨) العنكبوت الآية ٦١.
(٩) الآيات ١٢: ١٦.
(١٠) من الآيات ٢٣: ٥٠.
(١١) البقرة ١٢٨.
(١٢) البقرة ١٣٢.
(١٣) البقرة ١٣٦.
(١٤) الآيات ٣٣- ٣٧.
(١٥) الآية ٧٣.
(١٦) الآية ٧٤.
(١٧) الآيتان ١٠٦، ١٠٧.
(١٨) الآية ١.
(١٩) الآية ١١٨.
(٢٠) الآية ٧٧.
(٢١) الآية ٧٨.
(٢٢) الآيات ١: ١١.
(٢٣) أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى (٤٦٧- ٥٣٨هـ)- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل- ط دار الفكر للطباعة والنشر- القاهرة- المجلد الثالث- ص٢٥.

(٢٤) النور الآية ٦٤.
(٢٥) سورة الشمس الآيتان ٩، ١٠.
(٢٦) العلامة أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى ١٢٧٠هـ- روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى- مكتبة دار التراث بالقاهرة- المجلد الثامن عشر ص٢.
(٢٧) الحجرات الآية ١٤.
(٢٨) الحجرات الآية ١٥.
(٢٩) البقرة ١٣٦.
(٣٠) يونس ٨٣.
(٣١) الشعراء ١١١.
(٣٢) التوبة ٦١.
(٣٣) الأحزاب ٤٣.
(٣٤) الأحزاب ٥٦.
(٣٥) التوبة ١٠٣.
(٣٦) الزمخشرى- الكشاف- مجلد ٣ ص٢٥.
(٣٧) أخرجه الترمذى فى نوادر الأصول لكن بسند ضعيف عن أبى هريرة.
(٣٨) أخرجه الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى سننه عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة.
(٣٩) سورة طه الآية ١٠٨.
(٤٠) الغاشية الآية ١١.
(٤١) المائدة الآية ٨٩.
(٤٢) الفرقان الآية ٧٢.
(٤٣) الإمام الجليل أبوالفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت٧٧٤- تفسير القرآن العظيم- المكتبة التوفيقية بالقاهرة- الجزء الثالث- ص٢٣٨.
(٤٤) الألوسى- سابق- ص٥.
(٤٥) سورة النجم الآية ٣٢.

(٤٦) سورة الشمس الآية ٩.
(٤٧) الألوسى- سابق- ص٢.
(٤٨) سورة الأنعام الآية ١٤١.
(٤٩) انظر مادة ف ر ج لأبى حيان فى البحر المحيط.
(٥٠) الألوسى- سابق- ص٦.
(٥١) الزمخشرى- سابق- ص٢٦.
(٥٢) سورة البقرة الآية ٣٥.
(٥٣) سورة النساء الآية ٢٠.
(٥٤) الألوسى- سابق- ص٦.
(٥٥) سورة النجم الآية ٤٥.
(٥٦) سورة الصافات الآية ١٤٢.
(٥٧) الزمخشرى- سابق- ص٢٦.
(٥٨) سورة يوسف الآية ٦٥.
(٥٩) سورة الكهف الآية ٦٤.
(٦٠) سورة مريم الآية ٢٨.
(٦١) سورة المائدة الآية ٢.
(٦٢) سورة النساء الآية ٥٨.
(٦٣) سورة الأنفال الآية ٢٧.
(٦٤) الألوسى- سابق- ص١٢.
(٦٥) الآيات ١٢: ١٦.
(٦٦) ابن كثير- سابق- ص٢٤٠.
(٦٧) سورة السجدة (٧، ٨).
(٦٨) سورة الروم الآية ٢٠.
(٦٩) سورة الطارق الآيات (٥: ٧).
(٧٠) الألوسى- سابق- ص١٣.
(٧١) سورة السجدة الآيتان ٧، ٨.
(٧٢) سورة السجدة الآية ٩.

(٧٣) سورة فاطر الآية ١١.

(٧٤) الألوسى- سابق- ص١٤.

(٧٥) الألوسى- سابق- ص١٤.

(٧٦) أخرج ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه "قال: أملى على رسول الله ﷺ هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله تعالى (خلقاً آخر) فقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله قال بها ختمت، ورويت أيضاً عن عمر ﷺ، أخرج الطبرانى، وأبونعيم فى فضائل الصحابة، وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: لما نزلت (ولقد خلقنا الإنسان...) إلى آخر الآية قال عمر رضى الله تعالى عنه: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فنزلت كما قال، وأخرج ابن عساكر، وجماعة عن أنس أن عمر رضى الله تعالى عنه كان يفتخر بذلك ويذكر أنها إحدى موافقاته الأربع لربه عز وجل.

(٧٧) سورة الحج الآية ٧٣.

(٧٨) الكشاف- سابق- ص٢٨.

(٧٩) الآيات من ١٧: ٢٢.

(٨٠) سورة نوح الآية ١٥.

(٨١) سورة القمر الآية ٤٩.

(٨٢) سورة الملك آية ٣٠.

(٨٣) الزمخشرى- سابق- ص٢٩.

(٨٤) الزمخشرى- سابق- ص٢٩.

(٨٥) سورة يس ٧١: ٧٣.

(٨٦) سورة هود الآية ٢٦.

(٨٧) الألوسى- سابق- ص٢٥.

(٨٨) الألوسى- سابق- ص٢٥.

(٨٩) الآيات ٢٧: ٣٠.

(٩٠) سورة هود الآيتان ٤٥، ٤٦.
(٩١) سورة هود الآية ٤٧.
(٩٢) سورة هود الآية ٤١.
(٩٣) سورة محمد الآية ٣١.
(٩٤) الألوسى- سابق جـ١٨- ص٢٦.
(٩٥) سورة المدثر الآية ٤٢.
(٩٦) الألوسى- سابق- ص٢٦.
(٩٧) سورة هود الآية ٤٠.
(٩٨) سورة هود الآيتان ٤٥، ٤٦.
(٩٩) سورة هود الآية ٤٦.
(١٠٠) سورة هود الآية ٤٧.
(١٠١) سورة هود الآية ٤١.
(١٠٢) الألوسى- سابق- ص٢٧.
(١٠٣) الآيات ٣١: ٤٤.
(١٠٤) سورة هود الآيتان ٦٦، ٦٧.
(١٠٥) ينظر ذلك تفصيلاً أبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن). دار الريان للتراث بالقاهرة- مجلد ٧- ص٤٥١٢.
(١٠٦) الأستاذ عبدالكريم الخطيب- التفسير القرآنى للقرآن- ط دار الشعب- ص١١٣٤.
(١٠٧) سورة هود الآيتين ٩٩، ١٠٠.
(١٠٨) سورة هود الآية ١٠١.
(١٠٩) سورة الأعراف الآية ٦٩.
(١١٠) القرطبى- سابق- ص٤٥١٣.
(١١١) الألوسى- سابق- ص٢٩.
(١١٢) الألوسى- سابق- ص٢٩.
(١١٣) الألوسى- سابق- ص٣٠.

(١١٤) القرطبى- سابق- ص٤٥١٤.

(١١٥) القرطبى- سابق- ص٤٥١٤.

(١١٦) سورة الأنعام الآية ١٤٧.

(١١٧) سورة محمد الآية ٣٢.

(١١٨) سورة الرعد الآية ١٧.

(١١٩) الآيات (٤٥: ٥٠).

(١٢٠) سورة طه الآيات ٤٢: ٤٧.

(١٢١) سورة طه الآيتان ٧٧، ٨٨.

(١٢٢) الزمخشرى- سابق- ص٣٣.

(١٢٣) الأستاذ/ عبدالكريم الخطيب- سابق ص١١٤٢.

(١٢٤) ينظر فى ذلك سورة طه الآيات من ١٧: ٢. وكذلك الآيات من ٦٥: ٧٨.

(١٢٥) سورة النازعات الآيتان ٢٣، ٢٤.

(١٢٦) سورة طه الآية ٦٨.

(١٢٧) سورة النازعات الآيتان ٢٣، ٢٤.

(١٢٨) سورة طه الآيتان ٨٥، ٨٦.

(١٢٩) سورة الأنبياء الآية ٩١.

(١٣٠) سورة مريم الآيات ٢٢: ٢٦.

(١٣١) الآيات ٥١: ٥٦.

(١٣٢) سورة إبراهيم الآيتان ٤٢، ٤٣.

(١٣٣) سورة الإسراء الآية ٢٠.

(١٣٤) الزمخشرى- سابق- ص٣٤.

(١٣٥) مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٣٢٨، ومسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب جـ٣ ص٨٥.

(١٣٦) سورة سبأ الآية ٣٥.

(١٣٧) سورة آل عمران الآية ١٧٨.

(١٣٨) ابن كثير مجلد ٣- سابق- ص٢٤٧.

(١٣٩) ينظر فى ذلك الألوسى- سابق- ص٤٣.
(١٤٠) الآيات من ٥٧: ٦٧.
(١٤١) الآيتان ١٠٩، ١١٠.
(١٤٢) سورة النساء ٥٢.
(١٤٣) الألوسى- سابق- ص٤٣.
(١٤٤) القرطبى- سابق- ص٤٥٢٤.
(١٤٥) الألوسى- سابق- ص٤٤.
(١٤٦) سورة الزمر الآية ٣٨.
(١٤٧) سورة الزخرف الآية ٨٧.
(١٤٨) القرطبى- سابق- ص٤٥٢٤، الزمخشرى- سابق- ص٣٥.
(١٤٩) سورة الطور الآية ٢١.
(١٥٠) سورة المدثر الآية ٣٨.
(١٥١) سورة الكهف الآية ٤٩.
(١٥٢) سورة النساء الآية ٥٢.
(١٥٣) الألوسى- سابق- ص٤٨.
(١٥٤) الآيات ٦٩: ٧٧.
(١٥٥) سورة العنكبوت ١٦، ١٧.
(١٥٦) سورة الزخرف الآيات ٢٩: ٣١.
(١٥٧) سورة الزخرف ٣٢.
(١٥٨) سورة الإسراء الآية ١٠٠.
(١٥٩) سورة النساء الآية ٥٣.
(١٦٠) سورة النور الآية ٢١.
(١٦١) سورة آل عمران الآية ١١٠.
(١٦٢) سورة البقرة الآية ١٤٣.
(١٦٣) سورة الأنعام الآيات ٢٧: ٢٩.
(١٦٤) سورة الأنبياء الآيتان ٨٣، ٨٤.
(١٦٥) سورة الأنبياء الآيتان ٨٧، ٨٨.

(١٦٦) الألوسى- سابق- ص٥١.
(١٦٧) سورة ص الآيات ٨٦: ٨٨.
(١٦٨) الألوسى- سابق- ص٥٥.
(١٦٩) الزمخشرى- سابق- ص٣٩.
(١٧٠) الألوسى- سابق- ص٥٥.
(١٧١) الألوسى- سابق- ص٥٥.
(١٧٢) الآيات ٧٩: ٩٢.
(١٧٣) سورة يوسف الآية ٢٠٣.
(١٧٤) سورة يس الآيات ٧٧: ٧٩.
(١٧٥) سورة النحل الآية ٧٥.
(١٧٦) سورة الأنعام الآية ١٠٠.
(١٧٧) سورة الإخلاص الآيات ١: ٤.
(١٧٨) سورة الملك الآية ٣.
(١٧٩) الألوسى- سابق- ص٥٧.
(١٨٠) الألوسى- سابق- ص٥٧.
(١٨١) الألوسى- سابق- ص٥٨.
(١٨٢) ابن كثير- سابق- ص٢٥٤.
(١٨٣) سورة فصلت الآيتان ٣٤، ٣٥.
(١٨٤) القرطبى- سابق- ص٤٥٤٠.
(١٨٥) السابق- ص٤٥٤٠.
(١٨٦) سورة المنافقون الآيتان ١٠، ١١.
(١٨٧) سورة الأنفال الآية ٣٣.
(١٨٨) القرطبى- سابق- ص٤٥٤٠.
(١٨٩) ابن كثير- سابق- ص٢٥٤.
(١٩٠) الألوسى- سابق- ص٦٣.
(١٩١) سورة إبراهيم الآية رقم ١٦.
(١٩٢) سورة الكهف الآية ٦٩.

(١٩٣) سورة عبس الآيات ٣٤: ٣٧.
(١٩٤) سورة الكهف الآية ١٠٥.
(١٩٥) سورة المطففين الآيات ٢٩: ٣٦.
(١٩٦) الألوسى- سابق- ص٦٤.
(١٩٧) سورة الصافات الآيات ٢٢: ٢٧.
(١٩٨) سورة يس الآية ٥٢.
(١٩٩) ينظر فى ذلك الألوسى- سابق ص٦٥، ٦٦.
(٢٠٠) سورة عبس الآيات ٤٠: ٤٢.
(٢٠١) الزمخشرى- سابق- ص٤٣.
(٢٠٢) سورة الملك الآيات ٨: ١١.
(٢٠٣) سورة الأنعام الآية ٢٨.
(٢٠٤) سورة الذاريات الآيتان ٥٦، ٥٧.
(٢٠٥) سورة الحج الآية ٤٧.
(٢٠٦) سورة الأحقاف الآية ٣٥.
(٢٠٧) سورة القيامة الآية ٣٦.
(٢٠٨) سورة الأعراف الآية ٥٦.
(٢٠٩) الزمخشرى- سابق- ص٤٥.
(٢١٠) ينظر فى ذلك الألوسى- سابق- ص٧١، ٧٢.
(٢١١) الألوسى- سابق- ص٧٢.
(٢١٢) سورة الملك الآية ٢.

الفهـــرس

أ) مقدمة	٣
ب) حول السورة	٥
ج) المبادئ العامة لسورة المؤمنون	٦
الموضوعات:	
١- ورثة الفردوس	١٢
٢- دلائل الإيمان فى خلق الإنسان	٢٨
٣- دلائل الإيمان فى الكون	٣٧
٤- وحدة الديانات وحلقات الصراع بين الحق والباطل	٤٤
٥- استجابة الدعاء وهلك الظالمين	٥٠
٦- حلقة ثانية من الصراع بين الحق والباطل	٥٩
٧- قصة موسى (عليه السلام)	٧٢
٨- جوانب من وصية الله- عز وجل- لجميع الرسل	٧٩
٩- مصير الإنسان وعدالة الجزاء	٨٥
١٠- بيان موقف الوثنيين الماديين من القرآن	٩٥
١١- الإقرار بالربوبية لله تبارك وتعالى	١٠٦
١٢- نصائح للرسول	١١٩
١٣- مشاهد من يوم القيامة	١٢٦
١٤- الدعوة إلى تأمل حكمة الله فى خلق البشر	١٣٧
١٥- الخاتمة	١٤٤
١٦- الفهرس	١٥٦